سلسلة (تأويل آي الجهاد) - الجزء الثالث (٣)

سُورَةُ الكَوْثَرِ

صَانِعَةُ النَّفْسِ الفِدَائِيِّةِ

(قراءة جديدة في التفسير الموضوعي)

صنعة

أواب بن حسن الحسني

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه

وللمسلمين أجمعين

سِلْسِلَةُ (تَأوِيلُ آيِ الجِهَادِ) - الجُزْءُ الثَّالِثُ (٣)

سُوْرَةُ الكَوْثَرِ

صَانِعَةُ النَّفْسِ الفِدَائِيّةِ

(قِرَاءَةٌ جَدِيدَةٌ فِي التَّفْسِيْرِ المَوْضُوعِيّ)

صَنْعَة

أَوَّاب بْنِ حَسَنِ الحَسَنِيّ

غَفَرَ اللهُ لَهُ ولِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِين

إهْدَاءٌ

إلى فَارِسَيْ مَلْحَمَةِ (شَارْلِي ايبْدُو):

الشَّقِيقَيْنِ سَعِيْد وشَرِيْف كواشي - تَقَبَّلَهُمَا الله -

وإلى (فَارِسِ الثَّأرِ المُحَمَّدِيّ) محمد البُوَيْرِيّ - فَكَّ اللهُ أَسْرَه -

وإلى سَائِرِ الفِدَاوِيَّةِ النَّاطِقِيْنَ بِحُبِّهِم للهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُوْلِهِ بِالدَّم

إلى كُلِّ صَارِمٍ مَسْلُول، وكُلِّ بَاتِرٍ لِشَاتِمِ الرَّسُول

أُهْدِيكُم تأويلَ سُوْرَةِ النَّحْرِ

وَمَا فِيهَا من بَشَائِرِ العُلُوِّ والنَّصْرِ

ومَصِيرِ الشَّانِئِينَ إلى القَطْعِ والبَتْرِ

وَصَدَقَ اللَّه العَظِيْم إذْ يَقُوْلُ:

﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

مقدمة الجزء التفسيري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حَثَّ عبادَه على التَّضْحِيَةِ والفِدَاء، واصْطَفَى مِنْ أَولِيَائِهِ خِيرَةَ الشُّهَدَاء، والصَّلاةُ والسلامُ على رسولنا النَّبيل، وعلى أَبِينَا وَأُسْوَتِنَا الخَلِيل، صاحبِ المِلَّة الإبراهيميَّة، الذي وحَّدَ الواحدَ الديَّان، وحاربَ الأندادَ والأربابَ والطواغيتَ والأوثان، ذِيْ الرُّوْحِ التَّضْحَوِيَّةِ والنَّفسِ الفِدائِيَّةِ؛ الذي فَدَى نفسَه للنِّيرَان، وَضَحَّى بِوَلَدِه للقُرْبَان، وبذل ماله للضِّيفَان، وَوَقْتَهُ للإخوان، وقلبَهُ للرحمن..

ذلك الأبُ الأَبِيُّ، الذي جاهدَ الطُغَاة الجَبَابِرَة، وحطَّم الأصنامَ والأباطِرَة، صلَّى الله عليهما، وعلى آلِهِمَا، وَصَحْبِهِمَا، ومن اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمَا، وتَنَسَّكَ بنُسُكِهِما، وجاهدَ بجهادِهِمَا إلى يوم الدين، أما بعد..

فهذا هو الجزء الثالث من سلسلة (تأويل آي الجهاد)، الذي يسَّر الله بكرمه وعونه تَقْيِيدَهُ من مجالس التفسير الجهادي الحركي، الذي تَلَقَّيْتُهُ عن الشيخ العلامة المفسر المجاهد الشهيد أبي تراب دوست محمد النُّوْرِسْتَانِيِّ الأفغاني - تقبله الله -، وسيكون الكلام فيه - بإذن الله - مقصورًا على أقصر سورة في القرآن؛ سورة الكوثر التي لا تتجاوز سطرًا واحدًا من كتاب ربنا - جل جلاله -، وقد أطنبت في هذا الجزء الكلامَ على القضايا البيانيَّة مع مباحث المعاني الجهادية لأسباب شتى؛ من أهمها: أنها السورة التي لا زال التحدي بها قائمًا مُذْ أنْ أُنزلت قبل خمسة عشر قرنًا، فهي وإن كانت أقصر سور التنزيل، إلا أنها من أروعه وأبدعه وأعجزه، لاشتمالها على مخبَّآت الفرائد وكنوز الفوائد، ولجلال سَبْكِهَا، وجَمَال جُمَلِهَا، وكمال ألفاظها وعباراتها، واشتمالها على الأسرار المنطوية في غاية إعجازها ونهاية إيجازها، ولهذا عجز الكفر العالمي بكل مؤسساته ورجاله مُذْ أنْ أُنْزِلَتْ سورة الكوثر عن الإتيان بمثلها؛ فلم يجدوا سبيلًا لمعارضتها إلا بسَلِّ سيوفهم للنزال، وانتهاضهم للقتال[1].

---

(١) قال الإمام الزمخشري - عفا الله عنه - في رسالته (إعجاز سورة الكوثر) (ص: ٥٠): (لحينما عجزوا عن المماتنة، فزعوا إلى المفاتنة، ولما لم يقدروا على المقابلة، أقبلوا على المقاتلة، فكان فزعهم إلى شيءٍ ليس من المُتحدَّى فيه في شيء؛ دليلًا قاطعا على تمام المعجزة، وشاهدَ صدقٍ لصحة النبوة بظهور المعجزة، على أنَّ عداوة المتحدِّي هي العجز بعينه، والتقصير بذاته).

ومن جزيل العبارات المُمتّعة في هذا الشأن، ما سَبَكَهُ العلامة القرآني عبد الله دراز - رحمه الله - في كتابه (النبأ العظيم) بقوله: (فما هو إلا أن جاء القرآن، وإذا الأسواق قد انفضت إلا منه، وإذا الأندية قد صَفِرت إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يُباريَه أو يجاريَه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى؛ ذلك على أنه لم يَسُدَّ عليهم باب المعارضة، بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادًا أو جماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، مُتهكمًا بهم، مُتنزِّلًا معهم إلى الأخف فالأخف؛ فدعاهم أول مرة أن يجيئوا

ومن أسباب الإسهاب أيضًا؛ أنني لم أجد من مشاهير كُتَّاب عصرنا المتخصصين بفنون التفسير الموضوعي والبياني والحركي، من أفرد مُصَنَّفًا في بيان كنوز هذه السورة ومكنوناتها، فلم تتعرض لتفسيرها الدكتورة عائشة بنت الشاطئ - رحمها الله - في كتابها الرائع: (التفسير البياني للقرآن الكريم)، رغم حديثها واهتمامها بقصار السور في كتابها البديع، وكذلك لم يتعرض لها الدكتور محمد المبارك - رحمه الله - في كتابه: (دراسة أدبية لنصوص من القرآن)، ولا الدكتور صبحي الصالح - رحمه الله - في كتابه: (دراسة أدبية في ضوء خصائص المكي والمدني)، وأما من أفردها بتصنيف من أهل عصرنا، أو تعرض لتفسيرها وبيان وجوه إعجازها وتبيان مقاصدها، فهم فئة قليلة من الباحثين المغمورين، من غير مشاهير العصر وكباره، وجلُّهم - بحسب اطلاعي القاصر - لم يتطرقوا إلى المعاني الجهادية المخبوءة في هذه السورة(٢)، فذلك ما دعاني إلى الإسهاب والإطناب، والخروج عن الجادة المرسومة لهذه السلسلة التأويلية.

بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سورٍ مثله، ثم أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مثله، ثم بسورةٍ واحدةٍ من مثله، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، **ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة؛** فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ الإسراء: ٨٨ وقال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ البقرة: ٢٤، **فانظر أيَّ إلهابٍ، وأيَّ استفزاز!!**

لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبّد في قوله: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ ثم هدَّدهم بالنار، ثم سوَّاهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسانٌ يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألدَّاء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزَّتهم وفَخَارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طودٍ شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا، حتى إذا استيأسوا من قدرتهم، واستيقنوا عجزهم؛ ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان).

(٢) قد أفرد هذه السورة بالتصنيف بعض العلماء السابقين - عليهم رحمة الله -، وكثير من مصنفاتهم ما زالت مخطوطة ولم تحظ بالنشر والتحقيق، غير أنني قد استفدت - ولله الحمد - من بعض ما حُقِّقَ ونُشِرَ من تصانيفهم، ووجدت أنَّ أحسن من أفردها بالتصنيف من يلي:

١- الإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ)، وقد طبعت رسالته باسم (إعجاز سورة الكوثر)، بتحقيق: حامد الخفَّاف، ونشرتها دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت بلبنان، عام (١٤١١ هـ / ١٩٩١ م).

٢- الإمام الفقيه أبو العباس النقاوسي (ح: ٧٤٧ هـ)، وطبعت رسالته بعنوان (الروض المربع الأزهر فيما تضمنته سورة الكوثر من وجوه البلاغة وفنون الفصاحة والبراعة)، بتحقيق الدكتور عبد الله بن سليمان السعيد، ونشرتها جامعة الأزهر، في الجزء العاشر (ص: ٩٨٦١ - ٩٩٢١) من العدد الرابع والعشرين، من حولية كلية اللغة العربية بجرجا، عام (١٤٤٢ هـ / ٢٠٢٠ م).

٣- الإمام ابن أبي الشريف المقدسي (ت: ٩٢٣ هـ)، ورسالته بعنوان (عقود الدر والجوهر في نبذة من أسرار سورة الكوثر)، بتحقيق الدكتور طه محمد فارس، وهي منشورة على شبكة الألوكة عام (١٤٤١ هـ / ٢٠١٩ م).

٤- الإمام الفقيه ابن نجيم الحنفي؛ سراج الدين عمر بن إبراهيم (ت: ١٠٠٥ هـ)، صاحب (النهر الفائق) لا (البحر الرائق)، وقد نشرت رسالته بعنوان (عِقْدُ جَوْهَر في الكلام على سورة الكوثر)، بتحقيق الدكتور طه محمد فارس، وهي متاحة للتنزيل على شبكة الألوكة.

ثم يسر الله - بمنه وكرمه - الاطلاع والاستفادة من مصنفات أهل العصر وبحوثهم المفردة عن سورة الكوثر، ورأيت أن من أنفعها ما يلي:

إذن؛ فبيان مُخَبَّآت الإعجاز البياني في الكلام على هذه السورة الجليلة، ما هو إلا سبيلٌ توسلت به لبيان مُخَبَّآت الإعجاز الجهادي، ومن الله الفتح والمدد.

أما مناسبة نشر تفسير سورة الكوثر في هذه الوقت؛ فما تمر به أمتنا الإسلامية من تكرر حوادث السخرية والاستهزاء والاعتداء على مقام كلام الله - عز وجل - والقرآن الكريم، واستمرار الاعتداءات على مقام رسولنا الأمين - عليه أتم الصلاة وأفضل التسليم-، ولا يخفى أن هذه السورة الجليلة قد نزلت لخصوصية هذا الشأن الجهادي الدفاعي، وقد تضمنت بيان كل الجوانب العلمية والعملية المتعلقة بالواجبات والفرائض الإسلامية تجاه هذه الإساءات المستمرة والاعتداءات المتكررة من جنود الحملة الصهيوصليبية العالمية المعاصرة، فلهذا آثرت في هذا الآوان نشر التأويل الجهادي لسورة

١- أسرار إعجاز سورة الكوثر، للدكتور شحادة حميدي العمري، بحث مقدم بكلية الشريعة في جامعة مؤتة، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد الثاني، عام (١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م).

٢- سورة الكوثر: دراسة بيانية، للدكتور عبده محمد الحكيمي، بحث نشرته كلية التربية بجامعة صنعاء.

٣- سورة الكوثر: دراسة تحليلية موضوعية، للدكتور محمد أحمد الجمل، مجلة العلوم الشرعية الصادرة عن جامعة القصيم، المجلد الرابع، العدد الأول، (ص: ٢٢٩ – ٢٨٢)، (يناير ٢٠١١ م / محرم ١٤٣٢ هـ).

٤- الوجوه البلاغية والدلالية في سورة الكوثر، للدكتور عمر حمدان الكبيسي، بحث نشرته دار اقرأ، دمشق، (٢٠١٠ م).

٥- الإعجاز البياني في القرآن الكريم: سورة الكوثر نموذجا، للدكتور صالح بن عبد الله الشتري.

٦- الإعجاز النفسي في سورة الكوثر، للدكتور محمد رفعت أحمد زنجير، بحث نشرته دار اقرأ، دمشق، (٢٠١٠ م).

٧- الخصائص البلاغية في سورة الكوثر: دراسة صفية تحليلية، للدكتور حسانة مزرق، مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الثاني، (ص: ٦٩ – ٩٩)، (٢٠٢٣ م).

٨- سورة الكوثر: فوائد وعبر، لعمر حمرون، مجلة الإصلاح، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، السنة الثالثة، العدد الثالث عشر، ص: ٩ – ١٤، (١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م).

٩- مسائل العقيدة الرئيسة في سورة الكوثر: دراسة في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، لعبد الرحمن بن عبد الله التركي.

١٠- سيميائية العنوان في سورة الكوثر، للدكتورة آسيا زرابيب، مجلة المعيار، المجلد السادس والعشرين، العدد السادس، (٢٠٢٢ م).

١١- سيميائية العنوان في سورة الكوثر، لخالد حميدي، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد الخامس والثلاثين، (٢٠١٤ م).

١٢- تأملات في سورة الكوثر، لمحمد عادل القلقيلي، مجلة هدي الإسلام، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، المجلد السابع والعشرون، العدد التاسع، (١٩٨٣ م).

١٣- من جمال النظم القرآني في سورة الكوثر، للدكتور أحمد إسماعيل عبد الكريم، مجلة الوعي الإسلامي الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (العدد: ٥٨٩)، (ص: ٥٨ – ٥٩)، رمضان (١٤٣٥ هـ / يوليو ٢٠١٤ م).

١٤- دلالات الغياب في سورة الكوثر، للدكتور عادل محلّو، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، الصادرة عن جامعة الوادي بالجزائر، (ص: ٣٦٦ – ٣٧٩).

١٥- جمال اللغة القرآنية في سورة الكوثر، للدكتور عبد الكريم حاقة، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، الصادرة عن جامعة الوادي بالجزائر، المجلد الخامس، العدد الثالث، (ص: ١٤٦ – ١٥٧)، سبتمبر (٢٠٢٢ م).

١٦- اللؤلؤ والجوهر المستخرج من سورة الكوثر، للدكتور نايف بن أحمد الحمد، رسالة منشورة على شبكة الألوكة.

الكوثر، علَّ الله تعالى أن يجعل فيه ما يُحَرِّكُ شباب الإسلام ويستنهضهم لامتشاق سيفٍ بتَّارٍ مسلول، لنحر وبتر المعتدين على القرآن والرسول - عليه الصلاة والسلام -، وبالله العون والتأييد.

هذا؛ وقد مضى في مقدمة تأويل سورة الفاتحة، الكلام على طريقة شيخنا النورستاني في التدبر والتأويل، فإنه كان لا يكتفي بتفسير المعنى الظاهر للسورة فحسب، بل كان يرى أهمية العبور من المعاني الظاهرة إلى أسرار السورة الباطنة، وكان شديد التعلُّق بالتدبُّر والغُوْصِ والتعمُّق في آي القرآن على وجه الاعتبار[٣] والتأويل[٤]، فكان لا يألو جهدًا بعد تأويله للمعنى الظاهر للآية في العبور منها إلى المعنى الباطن، شريطة أن يكون المعنى الباطن مُؤيَّدًا باللفظ الظاهر، ومُؤَيَّدًا بدلالة معناه عليه.

ويحاول الشيخ - تقبله الله - أن يقتدي في هذا الباب بطريقة سيدنا ابن عباس - رضي الله عنهما -، وقد ذكرت في مقدمة تأويل سورة الفاتحة مثالًا للطريقة العباسيَّة عند تأويله لقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ البقرة: ٢٠٧، وهي طريقةٌ سلفيةٌ عتيقةٌ بديعةٌ في التفسير، كان قد اتَّبَعَهَا وارْتَضَاهَا أمير المؤمنين الفاروق أبو حفص عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وسأذكر هاهنا مثالا آخر يزيد من إيضاح المراد والمقصود، فقد كان الشيخ النورستاني يستند إلى هذا المثال في تأويله لسورة الكوثر على وجه الخصوص، فالشيخ يرى أن ذوات الثلاث آيات من قصار المُفَصَّل؛ مخبوءٌ في باطنها كنوزٌ وأسرارٌ من الفرائد الرقيقة والمعاني العميقة، وهي معاني

---

(٣) المراد من الاعتبار لغة: العبور من جانب الطريق أو النهر إلى جانب آخر منه، وفي الاصطلاح: العبور والوصول إلى معنى باطنٍ في الآية لإلحاقه بظاهره الذي يدل عليه لفظ الآية، وهو ضرب من أضرب انتقال الذهن وعبوره من الدليل إلى المدلول (الدعوى)، أو من المنصوص إلى غير المنصوص (المقيس)، ويستند الشيخ في الأخذ بهذه الطريقة إلى قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ الحشر: ٢، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ آل عمران: ١٣، وليس هذا النمط بخروجٍ عن طرق الاستدلال الأربعة (عبارة النص، وإشارة النص، ودلالة النص، واقتضاء النص)، بل الاعتبار نوعٌ من إشارة النص، فإذا كان بناؤه على علةٍ فقياس، وإلا فإشارة نص، وقد نبَّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في مواضع من كتبه، فقال: (**تلك الإشارات هي من باب الاعتبار والقياس، وإلحاق ما ليس بمنصوصٍ بالمنصوص، مثل الاعتبار والقياس الذي يستعمله الفقهاء في الأحكام**). (مجموع الفتاوى - ٣٧٧/٦).

وقال الإمام العلامة المجدد ولي الله الدهلوي (ت: ١١٦٧ هـ) - رحمه الله - في رسالته (الفوز الكبير): (ورد في الحديث الشريف "**أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن، ولكل حد مطلع**"، فينبغي أن يعلم أن ظهر هذه العلوم الخمسة هو ما يسمى بمدلول الكلام ومنطوقه...وبطن آيات الأحكام: استنباط الأحكام الخفية الدقيقة بالفحاوى والإيماءات...وأما مطلع الظهر: فهو معرفة لغة العرب والآثار المتعلقة بعلم التفسير، ويراد بمطلع البطن: حدة الذهن ولطفه، واستقامة الفهم وسَدَاده، مع نور الباطن وسكينة القلب، والله أعلم). (الفوز الكبير في أصول التفسير - ص: ١٢١)، دار البشائر الإسلامية، ط٢، (١٤٠٧ هـ).

(٤) التأويل الجهادي في اصطلاح مشايخنا: صرف الآية عبر الاعتبار والاستنباط من معناها الظاهري إلى معناها الجهادي الباطني اللائق بها، شريطة أن يحتمل هذا التأويل سياق ما قبلها وما بعدها من الآيات والسور، وشريطة أن لا يخالف هذا التأويل كتابًا ولا سنةً ولا إجماعًا.

ثانية تَتَوَلَّدُ من المعنى الأول الظاهر(٥)، ويُتَوَصَّلُ إليها بالاعتبار، والقياس، ودلالة الإشارة، ففي صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: (كان عمر - رضي الله عنه - يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لَمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟، فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله - عز وجل - ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره. فلم يقل شيئًا!، **فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟، فقلت: لا!، قال: ما تقول؟، قلت: هو أجل رسول الله أعْلَمه له**، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ما أعلم منها إلا ما تقول)(٦).

وليس في نفي سيدنا عمر وابن عباس - رضي الله عنهما - لتفسير كبار الصحابة من أشياخ بدرٍ؛ تخطئةً لهم، ولا تغليطًا لفهمهم، وليس فيه كذلك إنكارٌ لاشتمال السورة على معنىً في ذاتها وظاهرها، إذ إن الصحابة كانوا قد أصابوا في تفسيرهم للسورة مقتضى ظاهر لفظها، ففسروها على ظاهرها الواضح الصحيح، بيد أن أمير المؤمنين عمر وسيدنا ابن عباس - رضي الله عنهما - أرادا بيان مقصود السورة، ولُبِّها، وتأويلها حسب معناها الباطني الخفي كما يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله - في (موافقاته)(٧)، وهذا المعنى موافقٌ ومُتَوَلِّدٌ عن معناها الظاهري، والله تعالى أعلم.

من هنا؛ ينطلق الشيخ النورستاني إلى تأويل سورة الكوثر بهذا الأسلوب العُمَرِي العَبَّاسِي كما ستراه في هذا الجزء، فيرى أن (**من مهمات ومقاصد سورة الكوثر؛ صناعة النفس الفدائية التي تفدي الله**

---

(٥) قال العلامة ابن عاشور في المقدمة التاسعة من (تحريره وتنويره): (وَإِنَّكَ لَتَمُرُّ بِالْآيَةِ الْوَاحِدَةِ فَتَتَأَمَّلُهَا وَتَتَدَبَّرُهَا فَتَنْهَالُ عَلَيْكَ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ يَسْمَحُ بِهَا التَّرْكِيبُ عَلَى اخْتِلَافِ الِاعْتِبَارَاتِ فِي أَسَالِيبِ الِاسْتِعْمَالِ الْعَرَبِيِّ، وَقَدْ تَتَكَاثَرُ عَلَيْك، فَلَا تَكُ مِنْ كَثْرَتِهَا فِي حَصْرٍ، وَلَا تَجْعَلِ الْحَمْلَ عَلَى بَعْضِهَا مُنَافِيًا لِلْحَمْلِ عَلَى الْبَعْضِ الْآخَرِ، إِنْ كَانَ التَّرْكِيبُ سَمْحًا بِذَلِكَ، فَمُخْتَلِفُ الْمَحَامِلِ الَّتِي تَسْمَحُ بِهَا كَلِمَاتُ الْقُرْآنِ وَتَرَاكِيبُهُ وَإِعْرَابُهُ وَدَلَالَتُهُ، مِنِ اشْتِرَاكٍ وَحَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ، وَصَرِيحٍ وَكِنَايَةٍ، وَبَدِيعٍ، وَوَصْلٍ، وَوَقْفٍ، إِذَا لَمْ تُفْضِ إِلَى خِلَافِ الْمَقْصُودِ مِنَ السِّيَاقِ، يَجِبُ حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى جَمِيعِهَا).

(٦) رواه البخاري في صحيحه (١٩٠١/٤) برقم: (٤٦٨٦)، وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري): (وفي الحديث فضيلة ظاهرة لابن عباس، وتأثير لإجابة دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين، وفيه جواز تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا، لإظهار نعمة الله عليه، وإعلام من لا يعرف قدره لينزله منزلته، وغير ذلك من المقاصد الصالحة، لا للمفاخرة والمباهاة، **وفي جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم، ولهذا قال علي - رضي الله عنه - : "أو فهماً يؤتيه الله رجلاً في القرآن"**). (فتح الباري) (٢٧١/١٣).

(٧) قال الإمام الشاطبي في (الموافقات) (٣٨٤/٣): (فظاهر هذه السورة أن الله أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يسبح بحمد ربه ويستغفره إذا نصره الله وفتح عليه، **وباطنها أن الله نعى إليه نفسه**)، طبعة دار المعرفة، بيروت.

ورسوله بقتل وبتر أعدائه المعتدين، وتتبير مبغضيه الكافرين)، ويرى الشيخ أن (**سورة الكوثر مُختصَّةٌ بجهاد الشامتين الشانئين، وقتل الساخرين المستهزئين برسول العالمين، وأن سورة الكوثر تدعو بإيماءاتها وإلماحاتها ومقتضى ظاهرها إلى قتلهم ونحرهم، لبترهم وقطع شنآنهم عن الأرض**)، ويستدل على ذلك بأنها أنزلت - على الصحيح[٨] - في شأن الطاغوت كعب بن الأشرف اليهودي، وبشأن حواراته الساخرة التي دارت بينه وبين طغاة قريش وعلى رأسهم العاصي بن وائل، وأن نبينا - عليه الصلاة والسلام - كان قد تأولها بالعمل والتطبيق الجهاديّ العسكريّ، ببتره لكعبٍ بعدَ بتره لأشياخِ قريشٍ بِبَدْر، وهذا الضرب من التأويل القرآني الجهادي العسكري لسورة الكوثر، مشابهٌ من وجهٍ لِتَأَوُّلِه لسورة النصر بالإكثار من قول: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي) في ركوعه وسجوده[٩].

وأما الأمر بالصلاة والنحر في سورة الكوثر، فيرى الشيخ أن مقصودهما شكر الباري على أنعامه وألطافه وآلائه، ومآل الأمر بهما: أن تكون هاتان العبادتان معززةً ومقويةً له على بتر شانئيه، وقطع دابر أعدائه ومبغضيه، لإلحاق الهزيمة بهم والانتصار عليهم، فعبادة الصلاة تُقَرِّبُ الرسول - عليه الصلاة والسلام - من ربه، وعبادة النحر تُقَرِّبُ الرسول - عليه الصلاة والسلام - من أمته.

كما يرى الشيخ أن الأمر بالنحر مَسُوقٌ بقصد التذكير بالفدائية الإبراهيمية، فالذبيح إسماعيل فدى ربه بنفسه، وأبوه الخليل إبراهيم - عليهما السلام - فدى ربه بابنه وولده قربانًا لله رب العالمين، والمرء مهما حاول بعقله أن يتصور كنه هذه الفدائية، فسينقلب فكره عليه خاسئا وهو حسيرٌ عن إدراك ذلك، وستبوء محاولاته الفكرية والتصورية بالفشل عن فهم حجم هذه الفدائية الإبراهيمية، إلا إذا تم تقريب هذه الفدائية من خلال التماس أنحائها المعرفية مع توظيف الأحاسيس والمشاعر الإنسانية عبر عبادة النحر السنوية، فبذلك يمكن تجسيد هذه الذكرى الحقيقية بصورة يسهل معها إدراك حجم هذه الفدائية الإبراهيمية، وإن كان إدراكا ناقصا بحسب الاستعدادات العقلية للنفس البشرية.

---

(٨) هذا ما يختاره شيخنا النورستاني بناء على تصحيح الإمام ابن حبان في صحيحيه لهذا الحديث، وتصحيح الإمام ابن كثير في تفسيره لسند هذه الرواية التي أخرجها الإمام البزار في مسنده، غير أن الدكتور نادي بن محمود الأزهري قد ذهب إلى تضعيف كل الروايات الواردة في أسباب نزول هذه السورة، كما في كتابه القيم (الدخيل من أسباب التنزيل)، وقد درس فيه جميع هذه المرويات دراسة نقدية على منهج أهل الحديث، وحكم على جميعها إما بالإعلال أو بالضعف أو بالوضع، ولم تسلم عنده رواية واحدة في أسباب نزول هذه السورة من جهة صحة إسنادها أو متنها، بيد أن توظيف هذا المنهج الحديثي المتشدد في أبواب التفسير، مع الميل فيه إلى منهج المتقدمين في التصحيح والتعليل، والجرح والتعديل، فيه نظرٌ لا يخفى عند الراسخين في العلم، والله تعالى بالصواب أعلم.

(٩) روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن الصديقة أم المؤمنين عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: (كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي" يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ).

لهذا جاء الأمر بالنحر نهاية وختام كل عامٍ، ليكون تهيئةً وإعدادًا للنفس البشرية على الفدائية الإبراهيمية، وتربية لها على ختم الحياة بالتضحية بالنفس والمال والولد لله رب العالمين، ولكي تباشرها النفس بأحاسيسها ليكون تأثيرها في النفس أقوى وأعمق، وليكون التزامها بالفدائية أحزم وأعزم.

ولهذا كان الشهيد النورستاني يقول: (إن مدلول النحر يدخل فيه أمران: النسك أولًا، والحياة الفدائية لله والموت في سبيله ثانيًا؛ فبها تكون حياة المرء ومماته لله رب العالمين)، ويرى الشهيد أيضًا أن أفضل آيةٍ قرآنيةٍ تُفَسَّرُ بها آية سورة الكوثر؛ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الأنعام: ١٦١ - ١٦٣، فجمع - سبحانه - بين الصلاة وبين النحر، والنحر هاهنا مفهومٌ ثُلاثيٌّ مركَّبٌ من (**النسك، والحياة، والموت في سبيل الله**)، وسيأتي - بإذن الله - لاحقًا بيان اشتمال الأمر بالنحر على هذه المعاني بإسهاب وتفصيل.

لقد وضع شيخنا الشهيد النورستاني لفهم مقصود سورة الكوثر ثلاث قواعد، تعين على إدراك لُبِّهَا وتأويلها، وهي كما يلي:

١- أن سورة الكوثر لا يُفهم مقصودها إلا بإدراك سبب نزولها، والإحاطة ببيئتها حال نزولها.

٢- أن سورة الكوثر مبنية على التماسك في نسيجها النَّصِّيِّ، من جهة العطاء في دلالاتها، والكوثرية في معانيها، والمساواة في ألفاظها، والتعادل في إيجازها وإطنابها، فلهذا تتسع وتتفاعل ألفاظها لتعطي الكثير من المعاني المتوازنة الوافرة، والدلالات الخفية الباهرة.

٣- أن سورة الكوثر فيها من المخبَّئات ما يشابه مخبئات سورة النصر من بعض الوجوه؛ فلكليهما سرٌّ عظيم، ومقصودٌ بديع، يتولَّد من لفظها، مع موافقة أسرارها لمعانيها الظاهرة، وعدم مناقضتها لما جاء عن السلف في تفسيرها.

وجديرٌ بتكرار الذكر أن أشير هاهنا مرة أخرى إلى أن هذه الطريقة في التفسير ليست ببدعة مخترعة(١٠)، ولا بِتَقَوُّلٍ على الله بغير علم(١١)، بل هي طريقةٌ سلفيةٌ عتيقةٌ تلقَّاها الخلف عن السلف منذ أمير

---

(١٠) ليس كل تطبيقات هذه الطريقة في التفسير بمعصومة من الخطأ، بل فيها ما هو صحيح من وجه، وفيها ما هو خطأ من وجه، ومنها ما هو باطل محض، فالشأن في تطبيقاتها كالشأن في إعمال القياس الفقهي، منه الصحيح والخطأ والباطل، وهذه الطريقة التفسيرية تتشابه في بعض وجوهها مع التفسير الإشاري، وهو تفسير الآية بغير معناها الظاهر، لوجود إشارة خفية إليه، مع إمكان الجمع بينها وبين الظاهر من لفظها.

(١١) اشترط علماؤنا عدَّة شروطٍ لجواز تأويل القرآن وقراءته قراءةً جماديَّة جديدة، منها:

١- أن يكون التأويل صحيحا في ذاته، بأن يكون موافقا لمعنى الآية من جهة اللغة، ومن جهة الدلالة اللفظية.

٢- أن يكون في السورة وألفاظها إلماحٌ وإشعارٌ بالتأويل الجديد.

المؤمنين عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -، ويجري حاليًا في بعض بلدان خراسان، وبلاد ما وراء النهر، وشبه القارة الهندية، تدريس التفسير بهذه الطريقة البديعة، كما أنها موجودة في كلام بعض أهل العلم وتفاسيرهم، وقد تلقى العبد الفقير علم التفسير في الثغور الخراسانية بهذه الطريقة بالأسانيد المتصلة إلى مؤسس أصول هذا الفن العزيز[١٢]، الإمام المجدد ولي الله الدهلوي - رحمه الله - الذي أصَّلَ أصول هذا الفن، وقعَّد قواعده بأسلوبٍ دقيقٍ رقيقٍ فائقٍ في كتابه الشهير (الفوز الكبير في أصول التفسير)، ثم تلقى أولاده وتلامذته عنه التفسير بهذا الأسلوب مشافهةً، ويُروَى أن حفيده العلامة المجاهد الشهيد الشاه إسماعيل الدهلوي - تقبله الله -كان مُتَفَنِّنًا في تدريس كتاب الله - عز وجل - بهذه الطريقة، وأنه كان يُفَسِّرُ آيات الجهاد بهذه الطريقة للمجاهدين والمرابطين في زمانه، حينما كان وزير العلم والدعوة والحرب في الإمارة الإسلامية المجاهدة، التي امتدت رقعتها على أجزاء واسعة من بلاد الهند والأفغان، وقامت بأعباء العلم والجهاد والإيمان، قبل أكثر من قرنٍ ونصفٍ من الزمان، بقيادة أمير المؤمنين العالم المهاجر المجاهد الشهيد أحمد بن عرفان - تقبله الله -، ثم توالى الأخذ والتلقي مشافهةً لهذا الفنِّ جيلًا عن جيلٍ في بعض الثغور الجهادية الهندية والخراسانية حتى زماننا هذا، وقد كُتِبَ في عصرنا الحاضر بهذه الطريقة التفسيرية عِدَّةُ مجلدات، وصُنِّفَتْ فيها بلغة القوم المصنفات، غير أن اعتمادهم وتعويلهم كان على الأخذ والتلقي مشافهةً بالأسانيد المتصلة عن علماء التفسير

٣- أن لا يخالف التأويل الجديد مقطوعًا به في الشريعة.

٤- أن يوافق التأويل الجديد المعاني التي يهتم القرآن بتقريرها، والمقاصد التي اعتنت الشريعة الإسلامية بالحفاظ والحث عليها.

٥- أن يوافق التأويل الجديد سياق النظم القرآني سِبَاقًا ولِحَاقًا، بأن يكون بينه وبين المعنى الظاهر للآية السابقة واللاحقة ارتباطٌ وتلازم.

٦- أن يتسم المفسر بسلامة القصد، فلا يجوز له أن يحمل المعاني المؤوَّلة على وجه التعسف بانحيازه للمذاهب والآراء الضالة.

٧- أن يندرج التأويل الجديد تحت أصل الآية بدلالة المطابقة أو التضمن أو اللزوم، فلا يجوز للمفسر أن يأتي بتأويل جديد يخالف فهم السلف ويبطله من أصله، وإنما المقبول منه ما كان مُضيفًا لا ناقضًا، وما كان مُجَدِّدًا لا مُبْطِلًا لأقوالهم الصحيحة.

٨- أن لا يُقْصَرَ تفسير الآية على التأويل الجهادي الجديد، فلا يجوز بحال نفي المعاني الصحيحة الظاهرة التي رجحها المتقدمون من أئمة التفسير.

٩- أن يُراعى في التأويل الجديد، تقديم الأخبار الصحيحة المسندة، وتقديم أسباب النزول الموافقة للفظ الآية.

١٠- أن يُراعى في التأويل الجديد، الترجيح بدلالة السياق والنظم، وموافقة وقائع السيرة النبوية والتاريخ.

ولمزيد الفائدة يمكن الاطلاع على ما ذكره الإمام ابن القيم بهذا الشأن في كتابه القيم (التبيان في أيمان القرآن) (١/١٢٤) ط. عطاءات العلم.

(١٢) كان الفضل من بعد فضل الله - عزَّ وجل - في إرشادي لتلقي علم التفسير على الأصول الجهادية الخاصة بهذه المدرسة العلمية، لأحد العلماء المهاجرين المستقلين عن الانتماء إلى الجماعات الجهادية، وهو فضيلة الشيخ العلامة المرابط، والمحدِّث المهاجر المجاهد أبي الوليد الأنصاري الغزّي - حفظه الله وأمتع به -، فقد كان في مجالسه العلمية التي عقدها بالثغور الخراسانية، يفسر آيات الجهاد بهذه الطريقة البديعة، وكانت مجالسه من لذائذ الدنيا المترعة بشرح الأحاديث النبوية، وبيان الأحكام الفقهية، وسائر فنون العلم وأفانينه، وهو القائل في جواب سؤال له بعنوان (ما يبدأ به الطالبُ في التفسير): (وأحْسَنُ مَن رأينا مِنْهُم العِنايَةَ بهذا الفَنِّ مِن عُلماءِ زَمانِنا هُمْ عُلَماءُ الديارِ الهِنْدِيَّةِ؛ ولَهُمْ فيهِ طَرِيقَةٌ خاصَّةٌ وضَعَ أُصولَها وقَواعِدَها العلامَةُ الشاهُ وليُّ اللهِ الدِّهْلَوِيُّ رَحِمَهُ الله؛ ولأجْلِها صَنَّفَ كتابَهُ (الفوزَ الكبير)، وهِيَ طَرِيقَةٌ حَسَنَةٌ كَثيرَةُ الفوائدِ والدُّرَر؛ تَلَقَّيناها ولله الحَمْدُ عن عَدَدٍ من عُلَماءِ تِلْكَ الديار).

المرابطين، الذين نذروا أنفسهم وأوقفوها في الثغور للجهاد في سبيل الله، ونشر التوحيد، وقمع الإشراك، ولا بأس أن أشير إلى أن بعض أكابر علماء شبه القارة الهندية، كان قد انتقد صنيع بعض شيوخ هذه المدرسة في التفسير، بحجة توسعهم في الاعتبار والتأويل من جهة، وقصرهم لمعاني القرآن على معنى واحد من معاني شرائع الإسلام، ومن أولئك المنتقدين؛ الشيخ العلامة المفسر، حكيم الأمة، مولانا أشرف علي التهانوي - رحمه الله -، الذي صنف رسالة موجزة في انتقاد هذا الأسلوب في التفسير وسماها بـ (التقصير في التفسير)، وكان قد نقد فيها طريقة الشيخ العلامة المجاهد عبيد الله السندي - رحمه الله - في تفسيره (إلهام الرحمن) و(المقام المحمود)، وتفسير تلامذته كالشيخ العلامة المجاهد أحمد علي اللَّاهُورِي - رحمه الله -، ولهذا قال الشيخ العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسني - رحمه الله - في كتابه (نزهة الخواطر)[١٣]: (وكان له - أي الشيخ السندي - مذهب في تفسير القرآن، يستنبط منه دقائق السياسة العصرية، والمذاهب الاقتصادية، ويتوسع في الاعتبار والتأويل، وقد تخرج عليه في هذا الأسلوب من التفسير بعض كبار العلماء الذين نفع الله بهم خلقًا كثيرًا، أشهرهم الشيخ أحمد علي اللَّاهُورِي، وقد انتقد على هذا الأسلوب الشيخ أشرف علي التهانوي، وألف رسالة سماها (التقصير في التفسير)، وكان شديد الانتقاد لزعيم الهند المشهور غاندي وسياسته، ويراها خطراً على شخصية المسلمين، وكان شديد الانتقاد لكمال أتاترك، شديد المعارضة للشيوعين والملاحدة).

ورحم الله إمام الثورة، وشيخ الانقلاب، وأستاذ السياسة الإسلامية الشرعية؛ العلامة المجاهد عبيدالله السندي، ورحم الله صهره العلامة المجاهد المفسر أحمد علي اللاهوري، فالحق أنهما كانا قد توسعا في هذا الباب من التأويل، غير أنهما لم يَقْصُرَا المعاني على ما ذكروه من التأويل، وإنما أدخلوا في تفسيرهما ما هو مغفولٌ عنه ومجهولٌ من المعاني الحركية والجهادية والثورية والسياسية الشرعية، المخرَّجَةِ على المعاني الواردة عن السلف، مما لا يعود كثير منه على المعاني المأثورة عن السلف بالنقض ولا بالإبطال، فهو نوع من الإضافة في التفسير، بتوسيع الاستدلال والاستنباط بالفحاوى والإيماءات وإشارة النص، لا من باب التقصير في المعاني، ولا من باب قصر معاني الألفاظ على بعض دلالاتها، وهذا الأسلوب إن تأملتَهُ لرأيتَهُ ضربًا من أضرب التجديد المعتبر في التفسير، وسلوكًا قويًا لمذهب تخريج التفسير على التفسير، وعند إمعان النظر فيه، سنجده لونًا من أشبه ألوان التفسير الإشاري

(١٣) (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) المسمى بـ (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام) (١٣٢٠/٨)، للشيخ العلامة عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (ت:١٣٤١ هـ)، وهو والد الشيخ أبي الحسن الندوي - رحمهما الله - دار النشر: دار ابن حزم - بيروت، لبنان - الطبعة: الأولى، (١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م).

أو التفسير بالمثال والقياس والتشبيه، والجادة في هذه الأبواب مطروقةٌ في التفسير والتأويل منذ القرن الأول، كما تشهد بذلك كتب التفسير بالمأثور، وقد تكلم على ذلك غيرُ واحدٍ من أهل العلم، لا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في رسالته الشهيرة بـ (مقدمة التفسير)، وفي غير ما موضعٍ من مجموع فُتْياه.



وما أبرئ نفسي ولا أستاذي النورستاني - تقبله الله - من التأثر بهذا الأسلوب في التفسير الجهادي، إذ إنه أخصُّ صنوف التفسير الحركي[١٤]، غير أنني أطرح بين يدي شيوخي وأساتذتي من أهل العلم

(١٤) التفسير الجهادي لونٌ من أخص ألوان التفسير الحركي، وهو نمطٌ من التصنيف عزيز، والعناية به في زماننا قليلة، والمصنفات فيه أيضا نادرة، ولهذا أدعو أهل العلم والجهاد إلى بذل جهدهم في التصنيف فيه، وتوظيف قوَاهم العلمية والعملية والفكرية في تحريره وتقريره، وأحسب أن هذا الفن داخلٌ في التواليف السبعة التي لا يؤلِّف عقلاء أهل العلم وذوو التمييز الصحيح إلا فيها، كما قال الإمام ابن حزم الأندلسي - رحمه الله - في مقدمة كتابه (التقريب لحد المنطق)، فإنه زعم هنالك أنَّ مراتب الشرف في التواليف سبعة لا ثامن لها، وهي: إما شيءٌ لم يسبق إلى استخراجه فيخترعه ويستخرجه، وإما شيءٌ ناقص فيتممه، وإما شيءٌ أخطأ فيه صاحبه فيصححه ويصلحه، وإما شيءٌ مستغلق فيشرحه، وإما

ما أخذته وتلقيته عن علماء الثغور وشيوخ الجهاد، وأستدل لما ذهبوا إليه بكل ما تيسَّر من الحُجَجِ النقلية والعقلية والمنطقية واللغوية والأصولية والحركية، ثم أترك الحكم والنقد لأهل العلم والفهم والتدقيق، فما العبد الفقير إلا تلميذٌ يقف حيثُ وقفَ شيوخه وأساتذته، وأسأل الله تعالى أن يجزي بالخير كل من أَرْشَدَ وسَدَّد، ونقَّبَ وتعقَّب، وأخصُّ منهم شيخنا الجليل، وأستاذ الجيل، الأصولي الأصيل، العلامة المِفَن أبا قتادة الفلسطيني - حفظه الله -، فقد سَعِدْتُ بتعقيبه ونصحه لي وتنبيهه، في تعليقه على الجزء الثاني من هذه السلسلة، فقد قال مُنَبِّهًا وناصحًا - جزاه الله خيرا -: (**عندي ملاحظة - هي كالتنبيه والنصيحة - وهي أن تفسير القرآن على وجهٍ واحدٍ من وجوه الطاعة أو المعاني، يوقع الكاتب في تكلف اشتقاق المعاني لهذا الاتجاه؛ فقد حاولت أن أفهم أن سورة الفاتحة سورة جهادية كسورة العاديات، تحمل على هذا الوجه فلم أجد، فهل السورة حقًّا تصنع نفسًا جهاديًّا؟، أم أن الجهاد ثمرة براءة من الكافرين من نصارى ويهود، ويمكن فصل هذه البراءة عن الجهاد، كما هو شأن نزول هذه السورة (الفاتحة) في مكة، ولم يُعلم عن صحابيٍّ أنها أنشأت معنى جهادي لديه بلفظها أو بمعانيها الخفية الباطنة.**

فقط أنبه إلى أن حمل سور القرآن على معنى واحد يحبه المفسر، ويراه أكبر من غيره، يوقعه في التكلف، ويضطر لتمحلات غير مقبولة، ولا شك أن كل الشريعة مربوطة ببعضها، وكل الشرائع تعود للتوحيد، وكل الدين مقيد بالإيمان بالله واليوم الآخر، والجهاد ذروة سنام الإسلام، إذ بهذا المعنى يستطيع ربط الجهاد بالتوحيد وباقي الشريعة، ولكن هذا لا يعطي قولهم إن القرآن كله مقصوده القتال والشهادة) ا.هـ

والحقُّ أن العبد الفقير ما هو إلا ضابطٌ ومُقَيِّدٌ للعلم، ومُبَلِّغٌ وَشَارِحٌ له، ولست بالمُفَسِّر للقرآن الكريم استقلالًا، فجولةٌ يسيرةٌ في شروط المفسر تُنبئُ المرءَ المحقِّقَ أن العبد الفقير عن ذلك بمعزل، لكن الشأنَ شأنُ نقلِ العلم عن الشيوخ وتقييده، وَكَثِّهِ ثم بَثِّهِ بين أهل العلم والفهم لتحقيقه وتدقيقه، وأخذ ما وافق الحق منه، ونزع الباطل والدغل عنه،﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ هود: ٨٨.

شيءٌ طويلٌ فيختصره دون أن يحذف منه شيئًا يخل حذفه إياه بغرضه، وإما شيءٌ متفرق فيجمعه، وإما شيءٌ منثور ومختلط فيرتبه، وغير ذلك عنده معدودٌ من أفعال أهل الغفلة والسخف التي يُتَعَوَّذ منه، وذكر نحو ذلك في (رسالة في فضل الأندلس) ضمن (مجموع رسائل ابن حزم) (١٨٦/٢).

وإن من منهجي في هذه السلسلة التفسيرية أن أراعي فيها جانب النقل والعقل، وقواعد الأصول واللغة والمنطق، في بسط الحجج والدلائل، والتنقيب عن المقاصد والمعاني، والاستدلال على جهاديَّة المباني والمعاني، وأثرها في صناعة المجاهد القرآني، لترسيخ الأصول الجهادية المنهجية في نفسه، فما من شيءٍ يتم تقريره إلا واجتهدت - بإذن الله تعالى وتوفيقه - في بيان مأخذه النقليّ والعقليّ الذي يستند القول عليه، وليس من شرط مشايخنا في إثبات جهادية السورة؛ سلامة الأسانيد الواردة في سبب نزولها، ولا سلامة تفاسير السلف من شذوذ أسانيدها وإعلال متونها، فإن الشأن هاهنا ليس مُنْصَبًّا في القطع بإثبات مراد الله - جل جلاله - من كلامه، بل المقصود إثبات وجود موضوع الجهاد في السورة ولو بأدنى ملابسة، وذلك من جهة روحها وبيئتها، ومن جهة مزاجها ومقاصدها، وكذلك من جهة أسباب نزولها، وأثرها الجهاديّ الانفعاليّ في نفوس قارئيها ومتدبِّريها، وعليه فالشأن في إثبات جهادية السورة أشبه ما يكون بشأن إيراد أخبار المغازي والسِّيَرِ والفضائل لتحريك النفوس بها للركض إلى الله - جل جلاله -، فكان التسامح في ذلك مما لا يخالف ما عليه العمل عند جمهور الأئمة في تساهلهم الأخباري مع هذه الأبواب الثلاثة، بل هذا الباب أحق وأجدر بالتسامح من غيره، لعود التفسير والفضائل والمغازي في هذا الباب على معنىً واحد، وقد جرى تسامح الجمهور في أفراد هذه الأبواب منذ القرون الأولى، حتى قال الإمام أحمد - رحمه الله - فيها مقولته الشهيرة: (**ثلاثةٌ ليس لَهَا إِسْنَادٌ: التفسير والملاحم والمغازي**)[١٥]. **ولهذا فالمختار عند مشايخنا أنَّ القول بجهادية السورة ليس إلا بيان كونها قابلةً لحملها وإضافتها إلى معنى الجهاد في سبيل الله، لا أنها مقصورة ومحصورة ومخصوصة بموضوع الجهاد فحسب، ولا أن سور القرآن ليس لها إلا موضوع واحد وهو الجهاد والقتال، وليس لها إلا مقصود واحد وهو الشهادة في سبيل الله، وقد جرى العمل عند مشايخنا بعدم التساهل والتسامح في تفسير آيات أحكام الجهاد، بيد أنهم يتسامحون فيما دون ذلك مما كان قريبا من أبواب فضائل الجهاد والتحريض عليه**، لهذا فإنهم يُقَرِّرُون أنَّ كُلَّ روايةٍ ونقلٍ يفيد تلبس السورة بمعاني الجهاد والتحضيض عليه ولو بأدنى ملابسة، وليس في العقل والمنطق ما يدفع هذا الفهم والتأمل، فإن المتعيّن على أهل العلم أن يُعْمِلُوا قواعد الأصول وأدوات الاستنباط والتدبر في تأويل السورة، للتنقيب عن جهادية مبانيها ومعانيها، شريطة

(١٥) رواه ابن عدي في (الكامل) (١١٩/١)، وعنه الخطيب في (الجامع) (١٦٢/٢)، وليس مراد الإمام أحمد - رحمه الله - جواز رواية هذه الأبواب الثلاثة من غير إسناد، كما يظنه البعض من ظاهر كلامه، بل المراد أن روايات الملاحم والتفسير والمغازي ليس لها في الغالب أسانيد صحيحة يعتمد عليها، وأن أغلب أسانيدها شديدة الضعف وغير متصلة.

أن لا تخالف النتيجةُ مقاصدَ الشريعة وقواعدها، ولا ما هو مقطوع به من أحكام الديانة والتشريع، وبالله التوفيق.

فأما الجزء الأول الذي سميته بـ (سورة العاديات صانعة النفس الانغماسية)، فمأخذه الجهاديُّ أوضح وأظهر من المأخذ الجهادي في سورة الفاتحة، فمستند الجهادية في سورة العاديات من جانب الرواية والنقل، ما رواه الواحدي في كتابه (أسباب النزول) عن مقاتل مرسلًا، ورواه الحاكم، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قصة السرية التي بعثها النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى حَيٍّ من كِنَانَةَ، فأسهبت ولبثت شهرًا لا يأتيه منها خبر، حتى قال المنافقون: (قد قتلوا جميعا)، فأخبر الله تعالى عنها في سورة العاديات بما ينبئ عن نجاحها في مهمتها، فكان ذلك سببا مرويًّا في نزول السورة كما جاء في منقولات الآثار، فمن هاهنا ذهب مشايخنا إلى جهاديتها، وبالرُّغم من أنَّ هذه الرواية النقلية تفيد مدنية السورة، إلا أنهم رجَّحُوا مكيتها، وقالوا بجهاديتها، وأوَّلوا ذلك على معنى صناعتها لِنَفَسٍ جهاديٍّ إعداديّ، باستنهاض الروح الجهادية بمكة، وإعداد النفوس المجاهدة وإلهابها استعدادًا للمرحلة المستقبلية في المدينة، فكان ذاك النقل سبيلًا لإعمال العقل في التنقيب عن المقاصد الجهادية من روح السورة.

وكذلك فقد روى الثعلبي في تفسيره بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه فسَّر العاديات بقوله: (**هي الخيل في القتال**)، فليس المراد بالعاديات أيَّةَ خيل، وإنما المراد بها حصرًا الخيول الجهادية، وفرسانها الانغماسيون المقاتلون على وجه الخصوص، فكان ذلك معتمد مشايخنا النقلي في القول بمأخذها الجهادي. أما مأخذها العقلي والمنطقي والاستدلالي؛ فهو ظاهر للمتأمل في السورة وسياقها، وقد أوضحته في ذلك الجزء بما يغني عن تكرار القول فيه.

هذا وقد أشار إلى جهاديتها جماعات من علماء العرب والعجم، كالشيخ عطية محمد سالم - رحمه الله - في تتمته لـ (أضواء البيان) حيث قال: (**وَفِي سُورَةِ الْعَادِيَاتِ: أَكْبَرَ عَمَلَ الْجِهَادِ، فَأَقْسَمَ بِالْعَادِيَاتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ**)[١٦]، كما ذهب إلى ذلك جماعة من علماء شبه القارة الهندية منذ قرون، ولعل من أسبقهم العلامة المحدث المحقق الشاه عبد الحق الدهلوي (ت: ١٠٥٢ هـ) - رحمه الله - كما في رسالته (تحصيل الغنائم والبركات بتفسير سورة والعاديات)، فلهذا كله اختار جمعٌ من

(١٦) تتمة أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٥٦٨/٩)، (الجزء التاسع من الأضواء، والثاني من التتمة)، الطبعة الثانية، (١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م).

مشايخنا أن مقصود السورة: (**التشجيع على جهاد الأعداء، والانغماس فيهم حال قتالهم**)، واعتبروا أنَّ تارك الجهاد إنسانٌ كنود، أيْ كفورٌ لِنعمة ربه جحود.

وأما الجزء الثاني من هذه السلسلة فقد آثرت تسميته بـ (سورة الفاتحة صانعة الغضب الجهادي والإنعام السرمدي) لمناسبة زمان نشره بما تمر به الأمة الإسلامية حاليًّا في غزة العزة من أحداث عظام، ومعركة إسلامية مفصلية، وقد ارتأيت حينها حاجة أهل الإسلام في مزامنتهم لهذه المعركة إلى ركنٍ أصيلٍ من أركان المنهج الجهادي، وهو ركن تحفيز الغضب الجهادي في النفوس المؤمنة، كونه الأساس الدافع في مواجهة المعتدين من المغضوب عليهم والضالين، وهذا الغضب -كما أوضحته في ذلك الجزء - مستنبط من قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ الفاتحة: ٧، فإن من لوازم العبودية أن يغضب العبد لغضب ربه، ويدل عليه أيضًا مجيء مدلول الغضب بصيغة المفعول المصدَّرة بلام التعريف: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ بدلا من التعبير بعبارة: (صراط الذين أنعمت عليهم، **غير الذين غضبت عليهم**، ولا الذين أضللتهم)، ولهذا فقد ترجم رسولنا - عليه الصلاة والسلام - وصحابته الكرام هذا الغضب بالبراءة منهم وبغضهم في مكة، ثم استجد في المدينة معنىً جهاديًّا آخرَ للسورة، فكانت الترجمة الأخرى لتأويل سورة الفاتحة في المدينة؛ بقتال المغضوب عليهم، وإنفاذ أصدق مصاديق الغضب الجهادي عليهم، عند نزول الأمر بجهادهم في المدينة، ولهذا جرى مع بني قريظة وأشباههم ما جرى مما هو مزبور في كتب المغازي والسير.
والمقصود؛ أنه إذا كان للقرآن تنزلاتٍ عديدةٍ في كل زمانٍ ومكان؛ فإن نزول السورة بمكة قبل الهجرة لا يقتضي أن لا يكون لها أثرٌ في نشوء المعاني الجهادية وصناعتها بعد الهجرة إلى المدينة، فالآيات المكية تستجد معانيها من جهات عديدة بعد الهجرة من مكة، كما وقع ذلك لبعض الصحابة مع قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ القمر: ٤٥، وإلا فإن من المعلوم للمتدبر أنَّ سورة الفاتحة أشمل وأعم من كونها قاصرةً على صناعة ركن الغضب الجهادي، الذي هو أحد أركان المنهج الجهادي في الإسلام، ولهذا فقد كنت قد غيرت تسمية ذاك الجزء عدة مرات، حتى أبقيته في الأصل باسم: (سورة الفاتحة صانعة المنهج الجهادي والإنعام السرمدي)، ثم آثرْتُ نشره بذاك الاسم الذي نشر به لتلك الأسباب المذكورة آنفًا.

أما مأخذ جهاديتها من جانب النقل، فما ذكره الثعلبي في تفسيره، والسيوطي في (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) مما رواه البغوي، والطبراني، وأبو نعيم الأصبهاني، وابن السني وغيرهم، عن أنس بن مالك عن أبي طلحة - رضي الله عنهما - قال: (كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزوة فلقي العدو،

فسمعته يقول: "**يا** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾"، قال: (ولقد رأيت الرجال تُصْرَعُ، تَضْرِبُهَا الملائكة من بين أيديها ومن خلفها).

وظاهر هذا النقل - مع ضعف سنده - يفيد نشوء معنى جهاديٍّ قد استجد فهمه في المدينة من سورة الفاتحة، إذ الرواية تفيد أنه - عليه الصلاة والسلام - قد استفتح ربه بلُبِّ سورة الفاتحة في الغزو والجهاد، دون غيرها من سور الكتاب، فدل ذلك على وجود سِرٍّ جهاديٍّ في السورة، ولهذا ذكر هذه الرواية غير واحدٍ من المفسرين، كالثعلبي والسيوطي في آخرين، وقد بوَّب عليه المحدثون بما يفيد تعلقه بباب الجهاد في سبيل الله، فمن ذلك تبويب الإمام النووي - رحمه الله - في كتابه (الأذكار) على حديث أنس بقوله: (**بابُ ما يَقولُ إذا نظَرَ إلى عدوّه**)، وأورده شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه (الكلم الطيب) وبوب عليه بقوله: (**ما يُقالُ في لقاءِ العدوِّ وذِي السُّلطان**)، وكان - رحمه الله - يستفتح بها عند القتال، وذكر المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع)، وابن فضل الله العمري - رحمه الله - في (مسالك الأبصار) أن السلطان الناصر بن قلاوون حينما رأى كثرة التتار قال: (**يا لخالد بن الوليد**)، فقال له ابن تيمية - رحمه الله -: (**لا تقل هذا، بل قل: يا الله، واستغث بالله ربك، ووحِّدْهُ وحْدَه ينصرك، وقل: يا** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾)(١٧).

قال مقيده - عفا الله عنه -: ولهذا كان شيخنا النورستاني الشهيد - تقبله الله - يضيف وجهًا جهاديًّا في سبب تسمية سورة الفاتحة فيقول: (**ولا يَبْعُدُ أن يكون من أسباب تسميتها بسورة الفاتحة؛ أنه يستفتح بها في الجهاد على الأعداء، كما جاء في الخبر عن رسولنا - عليه الصلاة والسلام - أنه كان يستفتح بها في القتال، وقد جربنا قراءتها في قتال الروس والأمريكان الصليبيين فرأينا لها أثرًا كبيرًا في الفتح عليهم، كفتح البلدات الأفغانية، والقواعد العسكرية، والحصون الحصينة، وصدق الله إذ يقول:** ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾(١٨) الأنفال: ١٩، **فتلاوة سورة الفاتحة أو بعض آياتها عند القتال هي**

---

(١٧) (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) (٧٠١/٥) للقاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، (ت: ٧٤٩ هـ) - الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي - الطبعة: الأولى، (١٤٢٣ هـ).

(١٨) جمهور أهل التفسير على أن هذه الآية خطاب للمشركين على سبيلِ التهكم بهم، وذهب أُبَيُّ بن كَعْب - رضي الله عنه - وغيره إلى أن هذا الشطر من الآية خطاب للمؤمنين وإرشاد للمجاهدين، كما ذكر ذلك عنه الإمام البغوي والنسفي في تفسيرهما، واختار شيخنا النورستاني أن الآية كلها خطاب للمجاهدين، فيكون معنى الآية حينئذ: (**إن تَسْتَنْصِرُوا أيها المؤمنون ربكم وتطلبوا الفتح منه؛ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَالنَّصْر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال، والطمع والنزاع في الغنائم والأنفال، فهو خير لكم، وإن تعودوا إلى النزاع وإفساد ذات بينكم؛ نعد إلى توبيخكم وترك نصرتكم، ثم لا تنفعكم كثرتكم شيئًا إذا لم يكن الله معكم بالنصر والتأييد، واعلموا أن الله مع المؤمنين حقًا، الكاملين في إيمانهم بالنصر والتأييد، ومن كان الله معه فلا غالب له**).

(رُقْيَةُ الفتح)، ودليلنا في الاستفتاح بها عند القتال ما أفادنا به الخبر المذكور آنفًا، وما ورد من اجتهاد الصحابي وإقرار النبي - عليه الصلاة والسلام - له كما في حديث: "وما يدريك أنها رقية"، فقد اجتهد الصحابي باستعمالها في الرقية، قبل ورود نص الشارع بكونها رقية).

فهذا وجه الاستمساك بجهادية سورة الفاتحة من جهة النقل، فهو على ما فيه من ضعف إسناده، قد تسامحوا بروايته في كتب التفاسير والأحاديث وأذكار الجهاد، فَصَحَّ حينئذٍ إضافة السورة إلى معنى الجهاد من هذا الوجه، إذ الإضافة عند أهل العلم تكون بأدنى ملابسة على ما هو مقرر ومعلوم.

أما من جهة العقل والاستنباط، فقد ذهب من علماء التفسير في هذا العصر إلى جهادية سورة الفاتحة، العلامة المفسِّر الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله -، حيث كشف اللثام عن جهادية معانيها المخبوءة من جهة الاستدلال العقلي، وذلك عند بيانه لمعنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، من تفسيره المرئي، في أواخر الدرس الرابع[١٩]، وأول نصف ساعةٍ من بدء الدرس الخامس، وخلاصة قوله: أن العبد حين يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فهو يجهر ويعلن إعلانا صريحا بكمال توحيده لله، وتخصيص عبادته له وحده لا شريك له، **وهذا في حد ذاته إعلانٌ وإيذانٌ من الله تعالى ببدء المعركة والحرب بين أوليائه من أهل التوحيد، وبين أعدائه من أهل الشرك، لأن هذا الإعلان صدعٌ بمخالفة ما عليه الوجود من الخضوع للطواغيت، فهو بكل حالٍ يمثِّلُ بذرة الصراع والجهاد في الكون، فلهذا أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يُعِدَّ أهل التوحيد إعدادًا جهاديًّا لمواجهة هؤلاء الطواغيت**، وحين يُعِدُّ أهل التوحيد للطواغيت ما استطاعوا من قوة، ويستنفذون كل أسبابهم، فحينئذ تكون الاستعانة بالله فحسب، لأن الموحدين في كل زمان ومكان يواجهون دومًا مَنْ هم فوق قوتهم وطاقتهم من قِوَى الطغيان، وحينها يأتي المدد السماوي من القوي المتين - جل جلاله -، وحينئذٍ يلقي الله - عز وجل - الرعب في قلوب أعدائه، ويرسل عليهم جنوده التي يراها ولا يعلم قدرها إلا هو - سبحانه -، كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ آل عمران: ١٥١، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الأحزاب: ٩، وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ المدثر: ٣١، **والذي يحدد مقدار هذا العون والمدد والتأييد الإلهي؛ هم المجاهدون أنفسهم بصبرهم وتقواهم لله**، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ

---

(١٩) بدءا من الدقيقة السابعة والأربعين (د:٤٧) من الدرس المرئي الرابع.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ آل عمران: ١٢٥، فبحسب الصبر والتقوى يكون المدد من جند الله، **ولأجل هذا كله؛ كان قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو رصيد المجاهد الضعيف حين يجهر بالتوحيد أمام الطواغيت.**

وقد تكلم الشيخ الشعراوي - رحمه الله - بعد ذلك على مسائل مهمة يحسن بالمجاهد العناية بها، كمسألة توحيد مصدر الاستعانة، وحكم الاستعانة بالمشركين في مواجهة مشركين آخرين، كما أشار إلى مسألة طمع بعض أهل الشرك في احتواء جند التوحيد، وحكم تمكين الباطل من احتضان دعوة الحق لتعيش في كنفه، بهدف بسط الباطل هيمنته وتبعيته على الحق وأهله، أو لتمييع منهجهم، وإطفاء وهجهم متى ما أراد الباطل البصق على نور التوحيد المحتمي بكنفه لإطفائه، وذكر الشيخ حينئذ أن الله - جل جلاله - قد عالج هذا الأمر بقوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ آل عمران: ١٥٠، أي: فاحذروا أيها المجاهدون من أن تذهبوا لغيري فتُفْتَنُونَ بمن يدَّعي العطفَ عليكم، ويبدي العون لكم، فإنني أنا الله مولاكم العطوف عليكم، وأنا الله من ينصركم على عدوكم، ولا تقولوا إنه لا طاقة لنا بالعدو، لأننا ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ﴾ آل عمران: ١٥١. **ثم ختم الشيخ الشعراوي كلامه بأن أهل التوحيد إذا علموا بأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إعلان ببدء الجهاد في سبيل الله، وصدعٌ بالبيعة الكبرى والميثاق الغليظ بين العبد وربه، بإخلاص العبادة له وحده، وإخلاص الاستعانة به وحده، فيلزمهم حينئذ أن يطلبوا منهج الحق ونور الهدى الذي به يجاهدون أعداءهم، فعلَّمهم الله كيف يطلبون المنهج الحقَّ بقوله: ﴿** ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة: ٦ – ٧.

فناسب بعد ذلك كله أن نتسامَح في إضافة سورة الفاتحة إلى كونها سورة جهاديَّة، وإن كانت من جهة نزولها سورة مكية، فإن العديد من الآي المكيّ قد عُلِمَ تأويله في المدينة، فنشأت معانيها الجهادية في نفوس الصحابة بعد إدراك تأويلها بالمدينة، كما وقع لهم مع قوله تعالى في سورة القمر المكية: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ القمر: ٤٥، والمقصود أن كثيرا من السور المكية قد اشتملت على أسس صناعة واستنهاض الروح الجهاديَّة، وإلهاب النفوس الإيمانيَّة، وإعدادها للمرحلة القتالية المدنيَّة، وَحَسْبُ المرء أن يرى في سورة الفاتحة معالم التوحيد الذي هو زاد المجاهد والجهاد الأول، ومعالم جبهة المنعم عليهم من النبيين والصديقين وأنصارهم من المجاهدين والشهداء والصالحين، وسبيل موالاتهم والوصول إليهم، والسير على صراطهم، وكذا معالم جبهة الأعداء من المغضوب عليهم والضالين، وسبيل البراءة منهم، وتنكب صراطهم، وإنزال الغضب الجهادي بهم.

وكيفما كان الأمر؛ فليس في القول بجهادية السورة حملٌ لها على معنى واحدٍ من معاني الطاعة وقصرها وحصرها عليه، وإنما المقصود إضافة هذه المعاني والمقاصد الجهادية الجديدة إلى معاني وموضوعات السورة التي ذكرها أهل التفسير، وبيان اشتمال السورة على هذه المعاني المخبوءة التي تغيب عن كثير من الناس حال تلاوتهم وتدبرهم لكتاب الله، وأن في السورة من الموثبات والملهبات والمحرضات على عبادة الجهاد والفداء والتضحية في سبيل الله، ما لا يفطن إليه كثيرٌ من الناس.

وعلى كل حال؛ فهذا الصنيع من إثبات جهادية السورة أشبه ما يكون بتسمية السورة ببعض مواضيعها، وتفسير اللفظة ببعض مدلولاتها، فسورة البقرة سميت بذلك توقيفًا، رغم اشتمالها على أربعين موضوعًا غير موضوع بقرة بني إسرائيل، وقد جرى عمل السلف بالاجتهاد في تسمية بعض سور القرآن ببعض مواضيعها، وبتفسير اللفظة القرآنية ببعض أفرادها، فيفسرون الكل بجزئه، والاسم ببعض أوصافه، وهذا معلوم لكل من مارس هذا العلم وعالج طرائق السلف في التفسير.

هذا؛ وقد ارتأيت أن أفتتح هذه السلسلة التأويلية بقصار المُفَصَّل من السور المكيَّة الجهادية، لما في ذلك من التأنيس والتشويق والتلطيف، ومُراعاة سَنن النزول، وتقريب فهم صناعة القرآن للمجاهد الأول (الصحابي)، الذي فدى ربَّه ورسولَه ودينَه بنفسِهِ ومالِهِ، وأهلِهِ وعيالِهِ، ووالديهِ والناسِ أجمعين، حتى كان شعارهم - رضي الله عنهم وأرضاهم - : (يا رسول الله، نفسي لنفسك الفداء، ونحري دون نحرك)[٢٠].

وإن هذه الصناعة القرآنية لجديرٌ بالمسلم المعاصر أن يقف على أُسُسِ لَبِنَاتِها، ليعيد من جديدٍ تأهيل روحه، وصناعة نفسه، وصياغة عقله، وبناء ذاته بحسب المعايير السماوية والمقاييس القرآنية، وها أنا أضع بين أيدي إخواني ومشايخي قراءةً جديدةً في التفسير الموضوعي لـ (سورة الكوثر)، التي تُعَدُّ أقصر سورة في كتاب ربنا - جل جلاله -، ولن أقول: أصغر سورة، فإن القِصَر غيرُ الصِّغَر، وليس في كتاب ربنا صغير، وقد ارتأيت تسمية هذا الجزء بـ (سورة الكوثر صانعةُ النَّفْسِ الفِدَائية)، لما اشتملت عليه

(٢٠) قالها الصحابي الجليل أبو طلحة الأنصاري - رضي الله عنه - في غزوة أحد كما رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٨١١)، في مناقب الأنصار: باب مناقب أبي طلحة رضي الله عنه، وبرقم (٤٠٦٤) في المغازي: باب {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}، ورواه مسلم في صحيحه برقم (١٨١١)، في الجهاد: باب غزوة النساء مع الرجال، ورواه البزار في مسنده برقم (٦٦١١)، وقد يؤخذ من الحديث جواز التسبب في قتل النفس بالتعرض لضربة السيف وطلقة النار وإلقاء النفس على القنبلة ونحو ذلك تضحيةً بالنفس وفداءً عن غيرها من ذوي الشأن والقدر في الإسلام، والله تعالى أعلم.

من التذكير بالفدائية الإبراهيمية للأب الخليل إبراهيم، وابنه الذبيح إسماعيل - عليهما السلام -، وأما مناسبة نشر تأويل هذه السورة بعد نشر تأويل سورتي (العاديات) و(الفاتحة)؛ ما اشتملت عليه من الإرشادات الجهادية المتعلقة بإنفاذ ما مضى من إرشادات سورتي (العاديات) و(الفاتحة)، ففي (سورة الكوثر): البشارة باستمرار المدد الجهادي المحمدي بكثرة ووفرة، وانتصار أتباعه، وانبتار شانئيه وأعدائه، وفيها الأمر بالديمومة على التوحيد والإخلاص والصلاة، والفدائية في جهاد الأعداء، والأمر بنحرهم وقتالهم، والسبيل إلى بترهم وقطع دابرهم.

إنَّ القارئ لهذا الجزء سيدرك لا محالة أن قِصَار سُوَرِ القرآن كسورة (النحر) و(العصر) و(النصر)، هُنَّ أكثر سور الكتاب العزيز إيجازًا وإعجازًا، وأَعْظَمُهُنَّ دفقًا للمعاني المتجددة في كل زمان، وأشملهنَّ للفوائد والقواعد الحِسان، ولهذا قرر علماؤنا قاعدة في ذلك فقالوا: (**إن قِصَار السور المبنية على قليل الألفاظ، مخبوءٌ فيها طِوال المعاني، ومكتنزٌ فيها عظيم الدِّلالات، التي يحصل بها كمال الإعجاز بنهاية الإيجاز**)، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (**سورة الكوثر؛ ما أجلَّها من سورة، وأَغْزَرَ فوائدها على اختصارها**)[٢١]، وقال الألوسي - رحمه الله - عنها في تفسيره (روح المعاني): (**واعلم أن هذه السورة الكريمة على قصرها وإيجازها، قد اشتملت على ما ينادي على عظيم إعجازها، وقد أطال الإمام[٢٢] فيها الكلام، وأتى بكثيرٍ مما يستحسنه ذو الأفهام**)، وقال الإمام الرازي - رحمه الله - في

---

(٢١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٥٢٦/١٦).

(٢٢) يقصد الإمام الرازي - رحمه الله - فإنه قد استنفد في تفسيرها نحو من سبع عشرة صفحة من الحجم الكبير، وذكر في تفسيره لسورة الكوثر فوائد جمة، واستنباطات رائعة من دلالات ألفاظها، وبارع معانيها، فمنها ما هو جيدٌ ومقبولٌ مما تحتمله ألفاظ الآيات وسياقاتها، ومنها ما هو متكلف ومتعسف فيه، وبعضه فيه بحثٌ ونظرٌ وتأمل، وقد اجتهد الرازي في التدليل على بلاغة القرآن، بإبراز معانٍ كثيرةٍ في أقصر سورةٍ منه، على أن من عاداته الدائمة في تفسيره الإسهاب والإطناب، والحق أحق أن يتبع؛ فإن تفسيره الكبير هو تفسير التفاسير، وفيه جليل التعابير، وحُسْنُ التصاوير، ولهذا اعتنى به من أهل العلم المغاوير، لما حواه من جميل الفوائد وجليل الاستنباطات، ومن الإجحاف أن يفهم طالب العلم مقولة شيخ الإسلام ابن تيمية عن تفسير الرازي على الظاهر من عبارته، فإنه قد قال عن تفسير الرازي: (**فيه كل شيء إلا التفسير**)، والراجح أن قوله محمول على وجه الطرفة والمبالغة والظرافة كما هي عادة ابن تيمية - رحمه الله - في انتقاداته حال المحاورة الشفوية والمناظرة مع مخالفيه، ولهذا حكى هذا القول عنه عصريُّه الإمام أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) بقوله: (**ويُحكى عن بعض المُتَطَرِّفِينَ من العلماء**) أي: من أصحاب الطرفة والفكاهة، فمدلول مصطلح (المتطرفين) يومئذ غير مدلوله المعاصر الكئيب، وكذا حملًا للطاء على الوجهين من الإهمال والإعجام، فبالإهمال يكون مراده ما مرَّ معك، وبالإعجام يكون المقصود: (المتظرفين)، أي: من الظرافة والتظرف، ورحم الله الإمام السبكي الذي أنصف تفسير الرازي فقال حين بلغته قالة ابن تيمية عنه: (**ما الأمر كذا، إنما فيه مع التفسير كل شيء**)، وخلاصة القول في تفسير الرازي أنه تفسير لا غنى لطالب العلم عنه، لا سيما وأنه قد اعتنى عناية فائقة بجمال النظم القرآني، ومارس فيه على وجه التطبيق ما قعَّدَهُ الإمام عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله - من نظريات النظم في كتابيه، ويكاد أن يكون هذا أفضل ما في تفسير الرازي، علاوة على عنايته الفائقة بالمناسبات بين السور والآيات، فلقد أجاد في ذلك أيما إجادة، ويحسن بطالب العلم المتمكن أن يتصدى للتأمل في مناسباته المذكورة بين الآيات والسور، وأن يُعنَى بتلخيصه وتهذيبه وتجريده مما فيه من

تفسيره الكبير المسمى بـ (مفاتيح الغيب): (**هذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية بإثبات جميع المقاصد، فكانت صغيرة في الصورة، كبيرة في المعنى، ثم لها خاصية ليست لغيرها؛ وهي أنها ثلاث آيات، وقد بينا أن كل واحدة منها معجز، فهي بكل واحدة من آياتها معجز، وبمجموعها معجز، وهذه الخاصية لا توجد في سائر السور**)، إلى أن قال: (**واعلم أنَّ من تأمَّل في مطالع هذه السورة ومقاطعها؛ عَرَفَ أنَّ الفوائد التي ذكرناها بالنسبة إلى ما استأثر الله بعلمه من فوائد هذه السورة كالقطرة في البحر**)، وصدق الله إذ يقول:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ص: ٢٩، فمن بركاته التي ثبتت في الآثار؛ أنه لا تنقضي عِبَرُهُ، ولا تَفْنَى عجائبُهُ، **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ لقمان: ٢٧.

وقبل البدء بمضمون تفسير سورة الكوثر، أحب أن أشكر كل من أعانني وساعدني من إخواني الفضلاء، وأخواتي الفُضْلَيَات، ومشايخي الكُرَمَاء، في مراجعة أجزاء هذه السلسلة، بنقدها وتصحيحها ومراجعتها، وقد يسر الله تعالى لي عرض هذا الجزء على العديد من أهل العلم والجهاد في أقطار متعددة، فعرضته على جماعات من أهل العلم بالمغرب الإسلامي وجزيرة العرب، واليمن والشام، وخراسان وتركيا، فشاركوني جميعا في ترقية هذا الجزء وتكميل نقصه، فكل ما تستحسنه الأنظار في هذا الجزء فهو بسبب مشاركتهم ومساهمتهم معي في مراجعته وتصحيحه وتقويمه بالنقد البنَّاء، فلهم جميعا مني أجزل الثناء وأسنى الدعاء، فجزاهم الله بخير الجزاء وأجزله وأكمله وأشمله، غير أنني أَخُصُّ من هذا الجمع الكريم أَخَصَّ زملائي وشركائي بالثغر الخراساني؛ وهو أخي الحبيب، وصديقي اللبيب، صاحب النفس الأبية، والشمائل المرضية، الشيخ الفاضل، والمجاهد المناضل؛ أبا الحسن الوائلي - حفظه الله ورعاه، وجعل الجنة مثواه -، فهو الذي ما فتئ منذ قرابة عقدين من إمداد العبد الفقير، وإمداد مشايخنا وجميع إخواننا في الثغور الخراسانية بكل جديدٍ ومفيدٍ من كتب أهل العلم وموادهم العلمية والصوتية والمرئية، فضلًا عن مراجعته ونصحه، ومساهمته في التواصل مع أهل العلم لإنضاج أغلب ما يخطه قلم العبد الفقير من مكتوبات، ولولا الله ثم هذا الشيخ الحبيب والمجاهد اللبيب لكنت في عِدَادِ الغافلين الجاهلين، فقد كسر عني وعن إخواني ومشايخي حِصَار التجهيل الذي فرضته الحرب على المجاهدين

البدع الكلامية والشبهات الفلسفية، والزلل والخطل، وحينها سيجد فيه من دقائق التفسير وحقائقه ما لا يخطر له ببال، مما لا يكاد يوجد في غيره من التفاسير، لا سيما في حسن استنباطاته واستدلالاته على المسائل.

في العقدين الماضيين، وما من طفلٍ صغيرٍ ولا إنسانٍ كبيرٍ في الساحة الخراسانية إلا وللشيخ أبي الحسن فضلٌ عليه، وهو المعني بالشكر الجزيل الذي ذكره أميرنا الشيخ الدكتور أيمن الظواهري - تقبله الله - في مقدمة كتابه (الكتاب والسلطان) (ص: ٤): (**فمن هؤلاء فضيلة الشيخ، الذي حرص على إمدادي بكل ما يستطيع من كتب وأشرطة ومراجع، طلبتها منه، وكان في كل مرة يؤكد لي أنه سيبذل ما يستطيع، ويشجعني على طلب ما أريد**)، فجزاه الله عني وعنهم بأتم الجزاء وأفضل العطاء، وجزى معه بالخيرات كل إخوانه العاملين معه ممن أحسبهم والله حسيبهم من الأخفياء الأنقياء الأتقياء الذين أعانوا إخوانهم وساهموا معهم بكل ما يستطيعون في سبيل نشر العلم والفقه في الدين بينهم، والشكر موصولٌ لِزَوْجَيَّ وأولادي الذين صبروا معي على لأواء الهجرة وكُربات الجهاد، فوفروا لي في أصعب الظروف كل ما يستطيعون من وسائل الراحة وأسباب الخدمة، من أجل تفرغي لإتمام هذه السلسلة، فجزاهم الله خيرًا، وأصلحهم وأنبتهم نباتًا حسنًا.

وختامًا؛ فأرجو من أهل العلم والفضل ممن يطالع هذه السلسلة التفسيرية، إن وجد فيها زيغًا عن الحق، أو نشرًا لباطل، أن يبادر بالنصح والنقد والتصويب في العلن، وسيجدني - بإذن الله - رجَّاعًا إلى الحق، أوَّابًا وثوَّابًا إلى الجادة، ويعلم الله ويشهد أن العبد الفقير مستعدٌ غاية الاستعداد أن يسجِّرَ التنورَ بكل ما خالف الحقَّ مما كتبه ودونه، رضوخًا لصوت النصح والحسبة، وإنني كتبت ما كتبت نقلا عن شيوخي من أهل العلم، مع وجلٍ وخوفٍ يعتريني من أن أنسب في كلام الله - عز وجل - ومراده ما ليس صوابًا، وما من جزء أتممته في هذه السلسلة إلا وينتابني التردد في نشره مخافة أن أقول على الله - جل جلاله - غير الحق، وما مضيت في النشر إلا بعد الحث المستمر والتحريض المتكرر من بعض أهل العلم والفضل على نشره، بعد مرور أكثر من عقدٍ على تقييد هذه السلسلة، وبقائها حبيسة قيد التصحيح والمراجعة، وإنني أضع كتاباتي هذه بين يدي أهل العلم ليُصَوِّبوا ما كان فيها من زيغ وباطل، ولو وجدوا أن منهج هذه السلسلة باطلٌ من أصله، وأن المتعين قبض عنان القلم عنه، فليس لي إلا أن أستغفر ربي وأنبذ اليراع عني جانبًا، انصياعًا لنصح أهل العلم، وخضوعًا لما قاله الشيخ ابن عاشور - رحمه الله - في مقدمة (التحرير والتنوير): (هَذَا وَإِنَّ وَاجِبَ النُّصْحِ فِي الدِّينِ، وَالتَّنْبِيهِ إِلَى مَا يَغْفُلُ عَنْهُ الْمُسْلِمُونَ مِمَّا يَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ؛ قَضَى عَلَيَّ أَنْ أُنَبِّهَ إِلَى خَطَرِ أَمْرِ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ وَالْقَوْلِ فِيهِ دُونَ مُسْتَنَدٍ مِنْ نَقْلٍ صَحِيحٍ عَنْ أَسَاطِينِ الْمُفَسِّرِينَ، أَوْ إِبْدَاءِ تَفْسِيرٍ أَوْ تَأْوِيلٍ مِنْ قَائِلِهِ إِذَا كَانَ الْقَائِلُ تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الضَّلَاعَةِ فِي الْعُلُومِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا فِي الْمُقَدِّمَةِ الثَّانِيَةِ، فَقَدْ رَأَيْنَا تَهَافُتَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَلَى الْخَوْضِ فِي تَفْسِيرِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَصَدَّى لِبَيَانِ مَعْنَى

الْآيَاتِ عَلَى طَرِيقَةِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَضَعُ الْآيَةَ ثُمَّ يَرْكُضُ فِي أَسَالِيبِ الْمَقَالَاتِ تَارِكًا مَعْنَى الْآيَةِ جَانِبًا، جَالِبًا مِنْ مَعَانِي الدَّعْوَةِ وَالْمَوْعِظَةِ مَا كَانَ جَالِبًا، وَقَدْ دَلَّتْ شَوَاهِدُ الْحَالِ عَلَى ضَعْفِ كِفَايَةِ الْبَعْضِ لِهَذَا الْعَمَلِ الْعِلْمِيِّ الْجَلِيلِ، **فَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهُ، وَأَنْ لَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ، وَأَنْ يَرُدَّ الْأَشْيَاءَ إِلَى أَرْبَابِهَا، كَيْ لَا يَخْتَلِطَ الْخَاثِرُ بِالزُّبَّاد، وَلَا يَكُونَ فِي حَالِكٍ سَوَاد، وَإِنَّ سُكُوتَ الْعُلَمَاءِ عَلَى ذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي الْوَرْطَةِ، وَإِفْحَاشٌ لِأَهْلِ هَذِهِ الْغَلْطَةِ، فَمَنْ يَرْكَبُ مَتْنَ عَمْيَاءَ، وَيَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ، فَحَقٌّ عَلَى أَسَاطِينِ الْعِلْمِ تَقْوِيمُ اعْوِجَاجِهِ، وَتَمْيِيزُ حُلْوِهِ مِنْ أُجَاجِهِ، تَحْذِيرًا لِلْمُطَالِعِ، وَتَنْزِيلًا فِي الْبُرْجِ وَالطَّالِعِ**).

وأسأل الله الكريم، رب العرش العظيم؛ أن يجعل القرآن الكريم ربيعَ قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب همومنا، وجلاء أحزاننا وغمومنا، وأُنْسَ نفوسنا، وبهجة أرواحنا، ونور بصائرنا وعقولنا، وشفاء أسقامنا، وهادي جهادنا، ومُنجِحَ قتالنا، ومرجع خلافاتنا، وموئل أنظارنا، وحَكَمَ ما بيننا، ونظام جماعتنا، ومنهج أمتنا، ومحار أفكارنا، وملجأ تائهنا، وسائقنا وقائدنا وهادينا إلى جنات النعيم..

اللهم علِّمنا منه ما جهلنا، وذكِّرنا منه ما نُسِّينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا..

اللهم واجعله حجة لنا لا علينا، واجعله لنا حِصنًا حَصينًا من عذابك، وحرزًا مانعًا من سخطك، ودليلًا على طاعتك، ونورًا يوم لقائك، نستضيء به في خلقك، ونجوز به على صراطك، ونهتدي به إلى جنتك..

اللهم واجعلنا ممن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويرعاه حقَّ رعايته، وارزقنا شهادة في سبيل نشره، والعمل به وتحكيمه في العالمين، إنك أكرم مسئول، وأعظم مأمول، إلهنا إله الحق.

جهادية السورة

سورة الكوثر عبارة عن رسالة سماوية إعجازية، تحمل آيات التحدي والتهديد، والوعد والوعيد، والولاء والبراء، والصعود والهبوط، والانتصار والانحسار، والمد والجزر، والنحر والبتر..

لهذا ذهب جماعة من علمائنا المتأخرين إلى جهادية مبانيها ومعانيها، ومن هؤلاء شيخنا النورستاني - تقبله الله -، والعلامة المجاهد أحمد علي اللاهوري، وشيخه العلامة عبيد الله السندي، والشيخ عبد السلام الرستمي، والشيخ عبد الحميد الفراهي وغيرهم - رحمة الله على الجميع -، وهو ما يمكن فهمه أيضًا من كلام جمعٍ من علماء الأمة كالإمام الرازي وشيخ الإسلام ابن تيمية والبقاعي وغيرهم - رحمة الله على الجميع -.

فالسورة من أولها لآخرها سيقت من داخلها سياقًا جهاديًّا لمن أمعن التدبر فيها، فإنها قد اشتملت على عطاءين ونوعين من العطاء الموهوب: **فالعطاء الأول: عطاء الكوثر**؛ وهو الخير الكثير الموهوب لنبينا - عليه الصلاة والسلام – في الدنيا والآخرة، وهو على نوعين:

فالنوع الأول: **عطاء الكوثر الدنيوي**؛ وأفراده كثيرة لا حصر لها، لكنَّ أخصها بنظم السورة وسياقها: عطاء المدد الجهادي الكثير الوفير من أتباعه الباقين إلى يوم الدين، وذريته الفاطميَّة المجاهدة الباقية إلى يوم القيامة.

والنوع الثاني: **عطاء الكوثر الأخروي**؛ وأفراده أيضًا كثيرة لا حصر لها، لكنَّ أخصه وأعلاه وأكمله؛ نهر في الجنة اسمه الكوثر، وسَيَرِدُ على هذا النهر العظيم ذلك المدد الكثير من الأتباع والذراري ليشربوا من مائه شربة لا يظمؤون بعدها أبدا.

ثم أمر نبيه - عليه الصلاة والسلام - بأمرين، يحصل بهما مقصدان اثنان، يعودان بتقوية الوجود الإيماني، واستمرار وتعزيز المدد الجهادي:

أولاهما: الأمر بمطلق الصلاة لله، وهي على نوعين: نافلة، ومكتوبة، وحقيقة الصلاة: المواظبة على الشكر والخضوع والدعاء والإخلاص والتوحيد لله، ليحصل بهذه الصلاة الصِلَة الدائمة للعبد مع ربه، لأداء شكره وتقديره على هذا العطاء الكثير، والخير الوفير، وليقع مقصود الاقتراب من الله - جل جلاله - الذي يمده ويمد دعوته وحركته الرسالية بأسباب القوة والبقاء والمدد.

وثانيهما: الأمر بمطلق النحر لله، وهو على نوعين: نحر الأنعام، ونحر المعتدين ممن هم أضل من الأنعام، كشانئي الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وحقيقة النحر: إراقة الدماء وإزهاق الأرواح تقربًا لله، والتضحية والفداء له بالنفس والمال والولد، ليحصل بذلك النحر تربية النفس على بذل الغالي والنفيس لله رب العالمين، وقطع دابر الكافرين، وليقع مقصود الاقتراب من الله أكثر فأكثر، ومقصود التقارب بين عباد الله مع بعضهم البعض، والتعاضد فيما بينهم على تنمية معاني التضحية والفداء.

فإذا أتى العبد بهذين الأمرين والنوعين؛ ناسب أن يأتي **العطاء الثاني: عطاء البتر للمعتدين**، وهزيمة الكافرين المبغضين، وهذا البتر يكون على نوعين:

النوع الأول: **بترٌ دنيويٌ**؛ ببتر خير الدنيا عن الكافرين، وذلك بقطع انتفاعهم بنسلهم وذراريهم، وقطع كل أسباب قوتهم الدنيوية ثم هزيمتهم، فهذا قطع دابر الكافرين الذي جاء ذكره في محكم التنزيل.

والنوع الثاني: **بترٌ أخرويٌ**؛ ببتر خير الآخرة عنهم، وذلك بقطع الأعداء الشانئين عن نعيم الآخرة، وقطع طريقهم عن دخول الجنة.

ولأجل هذا كله؛ قال الإمام البقاعي: (**حاصل هذه السورة المن عليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالخير العظيم...والبشارة بقطع دابر أعدائه، ونصر جماعة أوليائه**)[٢٣].

وقال بعض مشايخنا: إن سورة الكوثر قد اشتملت على: (**ثلاثة الأصول لبتر وهزيمة أعداء الرسول**)، وهي كما يلي:-

الأصل الأول: المستنبط من قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ويقوم هذا الأصل على مبدأ الدعوة والترغيب لتكثير المجاهدين، ليطابق بعض مقصود ما جاء في الحديث الصحيح: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ"[٢٤]، ومقصود الحديث الصحيح: "تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ"[٢٥].

والأصل الثاني: المستنبط من قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾، ويقوم هذا الأصل على مبدأ التوحيد والإخلاص لله في جميع الطاعات والعبادات، لاسيما عبادة الصلاة والنحر، لأن الإخلاص

---

(٢٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/٢٩٣)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٢٤) رواه البخاري في صحيحه (٣٣٥) في التيمم، و(٣١٢٢) في الجهاد، وفي الصلاة (٤٣٨٠)، ورواه مسلم في صحيحه (٥٢١).

(٢٥) رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٦/ ٦٥).

والتوحيد هما الزاد الأول والأهم للصلة مع الله، والثبات في قتال الأعداء، والاستعداد لفداء الله ورسوله بالنفس والمال والولد.

والأصل الثالث: المستنبط من قوله تعالى: ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾، ويقوم على مبدأ الغلظة والشدة على أعداء الرسول - عليه الصلاة والسلام -، بقتالهم ونحرهم لبترهم.

وسيأتي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ما ذكره أهل العلم من مخبئات المعاني المكتنزة تحت مدلول لفظ النحر والبتر، وأنه مع إفادته الأمر بنحر الإبل والأنعام؛ يفيد أيضًا الأمر بنحر الشانئين ممن هم أضل من الأنعام(٢٦)، وجهاد الأعداء المبغضين لرسول العالمين، والفدائية في قتالهم، لاستئصالهم وبترهم، وأنه ليس من السديد في التفسير قصر مدلول الآية على الأمر بصلاة عيد الأضحى ونحر الأضحية فحسب.

ومما يفيد جهادية سورة الكوثر؛ ما جاء في آخرها من ذِكْرِ وجود الأعداء الشانئين لرسول العالمين - عليه الصلاة والسلام -، ففيه ما يُنْبِئُ عن وجود صِراعٍ وعَداءٍ بين جهتين ومنهجين متباينين، وهذا في الوقت ذاته يتضمن إعلان الحرب من الله - عز وجل – على أعدائه وشانئي رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، لما جاء في الخبر الصحيح الذي يرويه أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عن رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)"(٢٧)، فثبوت

(٢٦) قد يظن البعض أن مقتضى هذا الكلام؛ الدعوة إلى حصر استيفاء نحر المستهزئين بالرسول - عليه الصلاة والسلام - بالطريقة التي اشتهرت عن بعض أهل الجهاد في الشيشان والعراق وبلاد الحرمين وخراسان وباكستان بذبحهم بالسكين كما تذبح الخراف، أو أن الآية محمولةٌ على ذلك حصرًا، والصواب أن النحر أعم من الذبح، وقد جوَّز الذبح بالسكين جماعة من فقهاء المملكة العربية السعودية، كالشيخ ابن عثيمين - يرحمه الله - في شرحه الصوتي لصحيح البخاري وبلوغ المرام، حينما سئل عن بعض الواقعات والنوازل إبان الجهاد الشيشاني، غير أن الراجح عدم حصر استيفاء النحر بهذه الطريقة فحسب، وأحبذ لأهل العلم والجهاد أن يدققوا النظر في مآلات استيفاء القتل ذبحا بالسكين، لا سيما من جهة تصويره ونشره بين العالمين، وأثر ذلك على صعيد المصالح والمفاسد المترتبة عليه، والعبد الفقير يميل إلى حصر استيفاء القتل بالذبح بالسكين بالعتاة المجرمين من أئمة الكفر ومن كان من جنسهم كالصهاينة والشانئين برسول العالمين عليه الصلاة والسلام، أما ما جرى من استبشاع كثير من الناس لهذه الطريقة، فالحق أن باعث الاستبشاع ما جرى من استعمال خوارج هذا العصر لهذه الطريقة مع مخالفيهم من المجاهدين المسلمين الموحدين، وإلى الله المشتكى.

وخلاصة القول: أن مفهوم الأمر بالنحر يصدق الإتيان به بإصابة النحر وإهراق الدم منه بأي وسيلة وبأي طريقة كانت، ولعل أصدق مثال تطبيقي له في عصرنا الحاضر؛ ما يفعله فداوية الإسلام المغاوير، والذئاب المنفردة التي تباغت الجنود الإسرائيليين بالضرب والطعن بالسكاكين في صدورهم وأعناقهم، ومن آخرها العملية الفدائية البطولية؛ التي نفذها البطل الشهيد جواد ربيع - تقبله الله - بشمال فلسطين المحتلة، داخل أحد المجمعات التجارية بمدينة كرمائيل في الجليل الأعلى، فإنه ما زال يطعن بسكينه في نحورهم حتى قتل وأصاب منهم ثلاثة جنود صهاينة، ثم نال الشهادة كما نحسبه والله حسيبه.

(٢٧) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦١٣٧).

وجود العداء لسيد الأولياء - عليه الصلاة والسلام - في سورة الكوثر، يوجب إعلان الجهاد على هؤلاء الشانئين وقتالهم واستئصالهم، ويوجب مصير السورة إلى كونها جهادية المباني والمعاني أيضا، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه (الصارم المسلول): (وقد كتب النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى كسرى وقيصر، وكلاهما لم يسلم، لكن قيصر أكرم كتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأكرم رسوله؛ فثبت ملكه، فيُقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم، وكسرى مزَّق كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستهزأ برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقتله الله بعد قليل، ومزق ملكه كل ممزق، ولم يبق للأكاسرة ملك، وهذا والله أعلم تحقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، فكل من شنأه أو أبغضه وعاداه، فإن الله يقطع دابره ويمحق عينه وأثره، وقد قيل: إنها نزلت في العاصي بن وائل، أو في عقبة بن أبي معيط، أو في كعب بن الأشرف، وقد رأيت صنيع الله بهم، ومن الكلام السائر (لحوم العلماء مسمومة) فكيف بلحوم الأنبياء عليهم السلام؟، وفي الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة"، فكيف بمن عادى الأنبياء؟، وَمَنْ حَارَبَ الله تعالى حُرِبَ)[٢٨].

إلى أن قال: (فأخبر سبحانه أن شانئه هو الأبتر، والبتر: القطع، يقال: بتر يبتر بترا، وسيف بتَّار، إذا كان قاطعا ماضيا...والشنآن منه ما هو باطن في القلب لم يظهر، ومنه ما يظهر على اللسان، وهو أعظم الشنآن وأشده...**فيجب أن نبتر من أظهر شنآنه، وأبدى عداوته، وإذا كان ذلك واجبًا وَجَبَ قتله، وإن أظهر التوبة بعد القدرة، وإلا لما انبتر له شانئ بأيدينا في غالب الأمر...تحقيق ذلك أنه سبحانه رتب الانبتار على شنآنه، والاسم المشتق المناسب إذا عُلِّقَ به حُكْمٌ، كان ذلك دليلًا على أن المشتق منه عِلَّةٌ لذلك الحكم، فيجب أن يكون شنآنه هو الموجب لانبتاره...والانبتار يقتضي وجوب قتله، بل يقتضي انقطاع العين والأثر، فلو جاز استحياؤه بعد إظهار الشنآن لكان في ذلك إبقاء لعينه وأثره...فإذا أظهروه - أي الشنآن - محقت أعيانهم وآثارهم تقديرا وتشريعا، فلو استُبقي من أظهر شنآنه بوجه ما؛ لم يكن مبتورا، إذ البتر يقتضي قطعه ومحقه من جميع الجوانب والجهات، فلو كان له وجه إلى البقاء لم يكن مبتورا...فإن هذا اللفظ يشعر بأن المقصود اصطلام صاحبه واستئصاله واجتياحه وقطع شنآنه...وهذا بين لمن تأمله** والله أعلم)[٢٩] ا.هـ

(٢٨) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ١٧٢).

(٢٩) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٤٦٠).

وثمة أمر آخر يفيد جمادية السورة أيضًا، وهو ما يتعلق بما روي من أسباب نزولها، فقد روى الطبري والنسائي والبَزَّار بسند صحيح صحَّحه ابن كثير في تفسيره، وابن حبان في صحيحه، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: (**قدم كعبُ بن الأشرف**[٣٠] **مكَّة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصنبور**[٣١] **المنبتر من قومه، يزعم أنه خيرٌ مِنَّا، ونَحْنُ أَهْلُ الحجيج، وأَهْلُ السدنة، وأهل السقاية، فقال: أنتم خَيرٌ منه، قال: فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾**)[٣٢]، ومن المعلوم كيف عامل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كعب بن الأشرف، فإنه قد دعا وندب أهل الجهاد والفداء إلى بتره واغتياله وقطع شنآنه، بعدما بتر أصحابه من أئمة الكفر في غزوة بدر، فيسر الله للفداوية بتر كعبٍ واغتياله في عُقْرِ داره وحصنه، وكان ذلك على يد خمسة من فداوية الأنصار بقيادة ابن مسلمة - رضي الله عنهم جميعا -، فنحروه ثم حملوا رأسه إلى المدينة، وقذفوه بين يدي رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وهم يكبرون، فكبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بتكبيرهم.

وذكر المُفَسِّرُونَ رِواياتٍ أُخْرَى بأسانيد لا تخلو عن مقال، منها أن سورة الكوثر نزلت في العاصي بن وائل، وقيل: نزلت في أبي جهل، وقيل: نزلت في أبي لهب، وقيل: نزلت في عقبة ابن أبي مُعَيْط، وقيل: بل نزلت في كفار قريش، وذلك أنهم حين مات أبناء النبي - صلى الله عليه وسلم - كالقاسم وعبد الله وإبراهيم، قالوا: (**قد بُتِر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده**)، وذكر غير واحد من السلف أنها نزلت عندما قالوا: (**دعوه فإنه رجل أبتر لا عَقِبَ له، فإذا هلك انقطع ذكره**) فأنزل الله هذه السورة.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تعميم البتر على كل شانئ، بعدما ساق عددًا من روايات أسباب النزول: (**وهذا يَعُمُّ جميعَ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ مِمَّن ذكر وغيرهم**)[٣٣]، وقال الشيخ ابن عاشور - رحمه الله

---

(٣٠) هو كَعْب بن الأَشْرف الطَّائِي، من بني نَبْهان، وأُمُّهُ من يهود بني النَّضِير، فدان بدين أمه اليهودية، وكان سيدًا في أخواله، يقيم في حصن له قريب من المدينة، أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان شاعرًا، فأكثر من هجو النَّبِيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهجو أصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم، وخرج إلى مكة بعد وقعة بدر، فندب قتلى قريش فيها، وحضَّ على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة، فأمر النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقتله، وذلك في السنة الثالثة من الهجرة، وتمام قصة اغتياله ونحره مذكورة في (الروض الأنف) للسهيلي (٣٩٦/٥ - ٤٠٣)، و(البداية والنهاية) لابن كثير (٥/٤ - ٩).

(٣١) أصل الصُّنْبور: سَعَفَةٌ تنبت في جذع النخلة، لا في الأرض، والمراد هنا: أنه فَرْدٌ ضعيف ذليل لا أهل له، أَبْتَر لا عَقِب له، ولا أخ له ولا ناصر، فإذا مات انقطع ذكره، وتبددت دعوته الرسالية وحركته الجهادية، ويُنظَرُ لمزيد الفائدة (لسان العرب) (٤٦٩/٤).

(٣٢) رواه النسائي في الكبرى (١١٧٠٧)، وابن جرير (٩٧٨٦)، وابن المنذر (١٨٨٢)، والبزار في مسنده (٢٢٩٣) واللفظ له، وقد صحح ابن كثير في تفسيره إسناد البزار، وصححه ابن حبان في صحيحه أيضًا (٦٥٧٢).

(٣٣) تفسير ابن كثير (٨٩١/٤).

- في (تحريره وتنويره): (**وَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ مُبْغِضٍ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ، فَكُلُّهُمْ بُتْرٌ مِنَ الْخَيْرِ، مَا دَامَ فِيهِ شَنَآنٌ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَمَّا مَنْ أَسْلَمُوا مِنْهُمْ فَقَدِ انْقَلَبَ بَغْضُهُمْ مَحَبَّةً لَهُ وَاعْتِزَازًا بِهِ**)[٣٤].

ومع صواب تعميم الحكم إعمالًا لقاعدة الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ إلا أن الراجح نزولها في شأن كعب بن الأشرف وحواره الساخر مع كبار قريش، ولا شك أن العاصي بن وائل كان من كبارهم الحاضرين، بيد أن ما يعنينا هاهنا مما يفيد جهادية السورة؛ أَنَّ تكثير النسل الجهادي كان مِنْ أهمِّ مقاصد الأنبياء من النكاح والإنجاب؛ ويدل عليه ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: "قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ: لَأُطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلُّهَا تَأْتِي بِفَارِسٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، فَجَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَأَيْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ"[٣٥]، وهكذا أيضًا كان مقصود نبينا - عليه الصلاة والسلام - من نكاحه وإنجابه، بل ما حث النبي - عليه الصلاة والسلام - أمته على النكاح إلا لتكثير السواد الجهادي من أمته، كما قال: "تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ"[٣٦]، لذلك يقدّم عامة الفقهاء والمحدثين كتاب (النّكاح) في مؤلّفاتهم على كتاب (الجهاد)، لأنّ الجهاد وإن كان من أسباب الحفاظ على حوزة الإسلام والمسلمين، إلاّ أنّ النّكاح هو وسيلة التكاثر الجهادي الذي يزداد به سواد المجاهدين الحافظين للدِّيار، المذاودين عن الشريعة[٣٧]، ولهذا قال الإمام أحمد في كتاب (الورع): (**لو ترك النّاس النّكاح لم يغزوا**)[٣٨]، وقال الشيخ عبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني في كتابه (أجنحة المكر الثلاثة): (**إن المسلم حين ينجب ويرعى من ينجبه بالتربية الإسلامية، يشعر بأنه يمد جيش المسلمين في العالم بجندي من جنود الله، وأنه بذلك يقوم بأحد واجبات الجهاد في سبيل الله، لأن إمداد جيش**

---

(٣٤) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، المشهور بـ (التحرير والتنوير) (٥٧٧/٣٠)، الدار التونسية للنشر، (١٩٨٤ هـ).

(٣٥) رواه البخاري في صحيحه (٦٢٦٣)، ومسلم في صحيحه (١٦٥٤).

(٣٦) رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٦/ ٦٥).

(٣٧) لهذا تداعى الكفر العالمي في زماننا بمختلف مؤسساته وشركاته لمحاربة الإنجاب في العالم الإسلامي بدعوى تحديد النسل، ولتعويض التناقص المستشري في أممهم بسبب اندثار معالم الفطرة الإنسانية السوية فيهم، واستبداد السلوكيات الشاذة التي أملتها عليهم فلسفاتهم المنحطة ودعواتهم المنحرفة، واستيلاء الأنانية والفردانية بمجتمعاتهم الغربية.

(٣٨) الورع (ص: ١٢٥)، للإمام أحمد بن حنبل، برواية أبي بكر المروزي، تحقيق سمير بن أمين الزهيري، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م).

الجهاد بالمال أو بالرجال أو بالعتاد كل ذلك من الجهاد، ولذلك حث الرسول - صلوات الله عليه - على الزواج من المرأة الودود الولود، ليكاثر الأمم بالسلالات الإسلامية)[٣٩].

هذا المقصد الشرعي بتكثير السواد الجهادي يتأتى بالنكاح والإنجاب، ويتأتى أيضا بحفظ الدماء المعصومة للمسلمين والمجاهدين، ونبينا - عليه الصلاة والسلام - كان قد نَكَحَ ورُزِقَ بأبنائه القاسم وعبد الله - عليهم السلام - بمكة، ثم رُزِقَ بإبراهيم في المدينة، ثم ما لبث أن مات أبناؤه جميعا، ففرح كفار مكة بذلك وبتكرره، ومع تكرر أحداث الوفيات، كانوا يشمتون كل مرة بموت ولده، وكانوا يستصغرون أتباعه، ويستضعفونه - عليه الصلاة والسلام - حتى قال من قال منهم: (**قد بتر محمد**)، فنزلت هذه السورة تعزية وتسلية له، وتبشيرًا له بأنه قد أعطاه مددًا كثيرًا مستمرًا من الذراري والأتباع المجاهدين، وستكون ذريته وأتباعه هم الباقون الغالبون المنتصرون، وأن موت أبنائه - صلى اللَّه عليه وسلم - لن يُضعف شأن مسيرة الجهاد، ونشر الدين، وكثرة المجاهدين، وبشَّرَهُ أيضًا بأن أعداءه ومبغضيه سيؤول أمرهم إلى الانبتار والانقطاع والانهزام.

ومن مآخذ جهادية (سورة الكوثر) ما يمكن استنباطه من اسمها، فتأويل الكوثر بـ (الكوثر الأخروي) الذي هو الحوض في الموقف، والنهر في الجنة، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فإن هذا يقتضي بطريق دِلالة الالتزام وجود (الكوثر الدنيوي) وهم: الذراري والأتباع الكثيرون من المجاهدين المؤمنين، وهذا معنى بديعٌ في نفسه، وفيه مناسبة لسبب النزول كما لا يخفى، فـ (الكوثر الأخروي) قد وهبه الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - كي يرد عليه هذا النوع من (الكوثر الدنيوي) من الأتباع والذراري الفاطمية المحمدية، وسيكون صعاليك المهاجرين أول الواردين على هذا الكوثر الأخروي، كما جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه الإمام الطبراني في (المعجم الكبير)، والإمام أحمد في (المسند) عن عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما -، عن رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "حَوْضِي كَمَا بَيْنَ عَدَنَ وَعَمَّانَ أَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، أَكْوَابُهُ مِثْلُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، أَوَّلُ النَّاسِ عَلَيْهِ وُرُودًا صَعَالِيكُ الْمُهَاجِرِينَ"، فقَالَ قَائِلٌ: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: "الشَّعِثَةُ رُؤوسُهُم، الشَّحِبَةُ وُجُوهُهُمْ،

---

(٣٩) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير - الاستشراق - الاستعمار، دراسة منهجية شاملة للغزو الفكرية، للشيخ عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الثامنة، (١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م).

الدَّنِسَةُ ثِيَابُهُمْ، لَا يُفْتَحُ لَهُمُ السُّدَدُ، وَلَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ، الَّذِينَ يَعْطُونَ كُلَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَلَا يَأْخُذُونَ الَّذِي لَهُمْ"(٤٠).

وتؤخذ جهادية السورة أيضًا، وبأن من مقاصدها (**صناعة النفس الفدائية**)؛ من اسمها الآخر (سورة النحر)، فالنحر للأضحية هو شعار الذكرى السنوية بالتضحية الفدائية الإبراهيمية، التي أقدم عليها الخليل إبراهيم، وابنه الذبيح إسماعيل - عليهما السلام -، فإن الله تعالى حينما رزق إبراهيم الخليل بغلام حليم، أمره بذبحه بالسكين من الوريد إلى الوريد كما تُذبحُ الخِرَاف فداءً لربه، وقربانًا لخالقه، فامتثل إبراهيم الخليل أمر ربه، غير أنه أخبر ابنه الذبيح إسماعيل بأمر الله له، فما كان من الابن الفدائي سوى الرِّضَى والإقدام على التضحية والفداء بالنفس امتثالا لأمر الله - جل جلاله - قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلۡمَنَامِ أَنِّىٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴾ الصافات: ١٠٢ - ١٠٧، **فقوله تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ فيه إشارة إلى الجزاء الفدائي في مقابل البذل الفدائي من الوالد الخليل، والولد إسماعيل - عليهما السلام -، فحقيقة الأضحية في عيد النحر هي كونها عِوَضٌ بَدَلِيٌّ عن التضحيات**

---

(٤٠) رواه الإمام الطبراني في معجمه الكبير برقم: (١٤١٠٤)، ورواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٦١٦٢)، وصححه العلاَّمة أحمد شاكر في تحقيقه للمُسْنَد، والعلاَّمة الألباني في (الجامع الصحيح) و(السلسلة الصحيحة) بِرَقْمَيْ: (٢٠٦٠، ١٠٨٢)، و(الشعث) : جمع أشعث، أي شعره متلبد، فلا وقت لديه لتمشيطه وتسريحه وتجميله، و(دُنس) : أي ثيابهم دنسة، وليس المراد أنَّ فيها نجاسة أو قذارة، ولكنها ثيابٌ ممتهنة عند الناس لقلَّة ثمنها، كما جاء في الحديث المرفوع عند الترمذي في سننه وغيره بسند حسن: "البذاذة من الإيمان"، و(البذاذة) هي رثاثة الهيئة، وعدم العناية بالملبس، و(الشحبة وجوههم) من الشحوب، وَهُوَ تغير الْوَجْه من نصب الجهاد وما فيه من الجوع والهزال والنَّصَب، و(الذين لا ينكحون المنعمات) أي: الثريات الموسرات من بنات المترفين والأغنياء، فلا يقبلون الزواج بصعاليك المهاجرين لفقرهم وبذاذتهم، و(لا تفتح لهم أبواب السُدد) أي: أبواب القصور والمقصورات التي تكون خاصة بالمترفين، مثل بيوت الأمراء، فهؤلاء الصعاليك المهاجرون هم أول من يرد حوض نبينا - عليه الصلاة والسلام -، وسبب امتياز فقراء المهاجرين بهذا الفضل، واختصاصه بهم دون الأغنياء من المهاجرين، أنهم تركوا بلادهم وأوطانهم وأموالهم وما يملكون، فخرجوا مهاجرين للجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاته، فلا غرابة إن كوفئوا بالورود للكوثر قبل غيرهم.

إن من المُشاهد في ثغور الجهاد وساحات الرباط؛ أن الغني إذا هاجر فسيجد في هجرته ما يستعين به على تخفيف ألم غربته من وسائل الترفيه والتسلية، وأما الفقير المهاجر فستجتمع عليه كربتان وشِدَّتَان قاسيتان، هما: كربة الهجرة والغربة، وكربة الفقر وقلة ذات اليد، فإذا كان ذلك كذلك، فإن من تمام الجزاء والعدل الإلهي أن يكرم الله هذا الصنف من صعاليك المهاجرين قبل غيرهم يوم الفزع الأكبر، لشدة ما اعتراهم من كربات الهجرة والجهاد والفقر في سبيل الله.

ولما بلغ هذا الحديث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - بكى واستعبر، وقال: (قد أَنْكِحتُ المنعَّمات – يقصد: فاطمة بنت عبد الملك -، وفتحتْ لي أبوابُ السُّدَدِ، لا جرم لا أغسِلُ رأسي حتى يَشْعَثَ، ولا ثوبي الذي يلي جسدي حتى يَتَّسِخَ). وإنما قال ذلك طمعًا منه في نيل هذا الوصف والفضل المرتب عليه، فمراده: أن ما مضى مني أسأل الله أن يتجاوز ويعفو عنه بفضله ورحمته، وأما بعد أن بلغني هذا الحديث فسأنتهي عما كنت عليه من الترفُّه والتَّنعُّم.

السخية، والفدائية الإبراهيمية، وهي ذكرى سنوية حَوْلِيَّة للمؤمن كي يوطِّنَ نفسه على التضحية لهذا الدين، وفداء الله ورسوله بنفسه وولده وماله، ولهذا يقول الشيخ العلامة عبد الحميد الفراهي - رحمه الله - في كتابه (نظام القرآن): (**وأما النحر فهو جماع معنى الإسلام، فإن الإسلام هو الطاعة، وإذعان النفس لربها، وتسليم كليتها لمولاها**...قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ الصافات: ١٠٣، أي لما حقق بذلك كمال إسلامهما؛ أما الوالد فلأنه أسلم ما كان أحب إليه من نفسه، وأما الولد فلم يكن له إلا نفسه...فبين الله لنا بهذه القصة أن الإسلام أصله الطاعة، وتسليم أحب ما عنده للمولى حتى النفس)، وقال أيضا: (**وأما النحر فحقيقته تسليم النفس لربها**، كما دلت عليه قصة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وجعل التضحية تَذْكَارًا لتلك القصة والبلاء المبين الذي ابتلى به الرب خليله، **والمؤمنون يحققون ذلك التسليم بإهراق مهجهم في سبيل الله، فكما أن الصلاة حياتنا بالرب، فكذلك النحر موتنا له، وذلك هو الدين والإسلام، كما قال تعالى:** ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾...**فحقيقة النحر هي بذل النفس في سبيل الله**)[٤١].

أما عن السياق الجهادي للسورة من خارجها، فإن (سورة الكوثر) قد نزلت عقب (سورة العاديات)، على القول بمكيتها، فهي في النزول إذن من بعد (العاديات) زمانًا، وهي كذلك من بعدها في المصحف مكانًا، ومقصود (العاديات) كما ذكرنا آنفا (**صناعة النفس الانغماسية**)، وأما (الكوثر) فمقصودها (**صناعة النفس الفدائية**)، ثم جاءت (سورة النصر) من بعدهما مكانًا في ضمن هذا السياق الجهادي، كنتيجة بدهية بأن النصر والفتح والتمكين، ونمو الحشد الجهادي والفوج المحمدي، ما هو إلا ثمرةٌ ناتجةٌ عن التضحيات الإيمانية الفدائية، والانغماس الكلي في سبيل الله.

وعلى القول بمدنية (الكوثر)، فإنها حينئذ تكون قد نزلت من بعد (سورة الفتح)، وسورة الفتح لها علاقة خاصة بـ (سورة الكوثر) من جهة التشابه في مطلعها، فإنهما قد افتُتِحا بضمير الحق العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾ الفتح: ١، وقال تعالى:﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ الكوثر: ١، ولم يأت الاستفتاح في كتاب الله بضمير الحق العظيم سوى في أربع سور، (سورة الفتح) و(سورة

(٤١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ص: ٥٠٧)، للشيخ العلامة عبد الحميد الفراهي (ت:١٣٤٩هـ)، مطبعة الدار الحميدية بالهند، (٢٠٠٨ م).

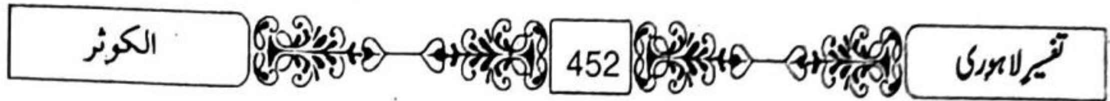
الكوثر)[٤٢]، و(سورة نوح) و(سورة القدر)، فالأولان كان الافتتاح متعلقٌ فيهما بشأن عطاءٍ جهاديٍّ موهوب، وأما الآخران فكان الافتتاح فيهما متعلقٌ بشأن إرسال الرسالة والرسول، فسورة نوح افتتحت بشأن إرسال الرسالة مع الرسول الأرضي - عليه الصلاة والسلام -، فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ ﴾ نوح: ١، وسورة القدر افتتحت بشأن إرسال الرسالة مع الرسول السماوي - عليه السلام -، فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ ﴾ القدر: ١.

وكيفما كان الأمر؛ فعلى القول الراجح بمدنية (سورة الكوثر)، فإنه يكون قد نزل بعدها (سورة النصر)، وهي سورة جهادية أيضًا، وفيها إرشادات للمجاهدين بالواجبات التي يجب العمل بها لفتح البلدان، وكيفية الحفاظ على ثمار الفتوحات الجهادية، ووظائف المجاهدين بعد النصر والفتح، والآداب التي يجب على المجاهدين التحلي بها حال فتح الديار، وَعَقِبَ النصر على الكفار، وأسأل الله تعالى أن ييسر للعبد الفقير نشر تفسيرها في الأجزاء القادمة - بإذنه وحوله وقوته -، وبالله أستعين وعليه أعتمد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(٤٢) ذهب بعض علمائنا إلى أن سورة الكوثر نزلت مع سورة الفتح في منصرفه - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية، واستدلوا بما رواه الإمام الطبري في تفسيره عن سعيد بن جبير أنه قال: كانت هذه الآية، يعني قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾ يوم الحديبية، أتاه جبريل عليه السلام فقال: انحر وارجع، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخطب خطبة الفطر والنحر، ثم ركع ركعتين، ثم انصرف إلى البُدن فنحرها، فذلك حين يقول: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾. قلت: وثمة تقارب بين موضوع ومطلع سورتي الفتح والكوثر، وقد مضت الإشارة إليها آنفا.

الـمُـقَـدِّمَـاتُ السَّبْعُ الـمُمَهِّدَاتُ لِفهْمِ سُورَةِ الكَوْثَر

١- مقصود السورة: لا يقع تدبر السورة تدبرا صحيحًا إلا بعد الالتفات إلى مقصودها كما قال الإمام الشاطبي في (الموافقات)[٤٣]، ولهذا فقد كان الشيخ النورستاني - تقبله الله – مولعًا بمقاصد السور، وكان قد رَجَّحَ أن مقصود سورة الكوثر: (**صناعة الفدائي البتَّار ومُتَبِّرِ الكفار**)، بينما ذهب الشيخ عبد السلام الرستمي - رحمه الله - في تفسيره (أحسن الكلام) إلى أن موضوعها: (**ثلاثة الأصول لبتر أعداء الرسول**)، وذهب جمعٌ من علماء خراسان، وشبه القارة الهندية كالشيخ العلامة أحمد علي اللاهوري، وقريب منه أيضا ما اختاره شيخه العلامة عبيد الله السندي - رحمة الله عليهما - إلى أن خلاصتها تدور حول موضوع: (**أصول هزيمة أعداء الإسلام**)، وقد اقتطفت صورة من صفحات تفسير الشيخ اللاهوري لخلاصة سورة الكوثر من المجلد العاشر:



خلاصہ: اصول ہزیمت اعدائے اسلام

ماخذ: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (الكوثر: ١)

وقد اختلف أهل العلم في سِرَّ السورة الذي ينطوي تحته مرتكزات علومها، ولبُّ مقصودها، فأشار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إلى أن سِرَّ السورة ينطوي تحت قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، ولهذا قال في (مجموع فتياه): (**وحقيقة معناها - أي سورة الكوثر - تُعلم من آخرها؛** فإنه - سبحانه وتعالى - بتر شانئ رسوله من كل خير، فيبترُ ذكره وأهله وماله؛ فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزودُ فيها صالحًا لمعاده، ويبترُ قلبه، فلا يعي الخير، ولا يؤهله لمعرفته ومحبته، والإيمان برسله، ويبترُ أعماله فلا يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار، فلا يجد له ناصرًا ولا عونًا، ويبتره من جميع

(٤٣) الموافقات في أصول الشريعة (٣/٣٨٣)، طبعة دار المعرفة، بيروت.

القرب والأعمال الصالحة، فلا يذوق لها طعمًا، ولا يجد لها حلاوة، وإن باشرها بظاهره فقلبه شاردٌ عنها)[٤٤].

ومال الشيخ عبد الحميد الفراهي - رحمه الله - إلى أن سر السورة ينطوي تحت قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ فقال في تفسيره (نظام القرآن): (اعلم أن تأويل هذه السورة مخبوء تحت كلمة الكوثر)[٤٥].

وأما الشيخ النورستاني - تقبله الله - فقد مال إلى تثليث سر السورة، وأنها تنطوي تحت مثلَّث دلالات أواخر آياتها، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، وقوله: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾، وقوله: ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ ويقول: (إنَّ هذه الألفاظ الثلاثة ينطوي تحتها سر جمادية السورة)، وسيأتي في تفسير السورة بيان الراجح المختار في معاني هذه الألفاظ الثلاثة، وأن الصواب فيها توسعة دلالات معانيها، لتشمل مع إهراق دماء الأضاحي والأنعام؛ إهراق دماء شانئي الرسول - عليه الصلاة والسلام - أيضًا، وإزهاق أرواحهم وقتلهم، لبتر أعيانهم ومحق آثارهم.

٢- مسميات السورة: لم يختلف أهل العلم في أن هذه السورة ليس لها إلا اسم توقيفي واحد وهو (سورة الكوثر)، فهكذا دونته مصاحف المسلمين منذ الصدر الأول، وهكذا عَنْوَنَ لها الترمذي في جامعه. وسبب تسميتها بذلك؛ لافتتاح مطلعها بهذا العَلَمِ القرآني الجليل، ولاشتمالها على كوثرٍ جَمٍّ من مكنوز المعاني، ومخبآت الفرائد تحت طيَّات ألفاظها.
كما أنَّ للسورة أسماء اجتهادية أخرى غير توقيفية، منها (سورة إنا أعطيناك الكوثر)، وهو اختيار جمع من الصحابة والسلف؛ كالطاهرة الصِّدِّيقة بنتِ الصِّدِّيق، أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنهما -، وكابن عباس وابن الزبير - رضي الله عنهما -، وبه عَنْوَنَ البخاري في صحيحه.

ومنها (سورة النحر)، ووجه تسميتها بذلك؛ ما جاء فيها من الأمر بالنحر، ورغم أن الأمر بالصلاة قد ورد فيها قبل ورود الأمر بالنحر، وهي أعظم وأجل من عبادة النحر إجماعًا، إلا أنهم عدلوا إلى تسميتها بـ (سورة النحر) لصارفٍ عن ذلك صرفهم، وهو إما لأن سورة الفاتحة قد سميت بـ (سورة الصلاة)

---

(٤٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٥٢٦/١٦).
(٤٥) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ص: ٤٨٤)، للإمام العلامة عبد الحميد الفراهي (ت:١٣٤٩هـ) - مطبعة الدار الحميدية بالهند - ٢٠٠٨م.

من قبلها فتفرَّدتْ بذلك الشرف، أو لأن سر السورة ومقصودها قد انطوى تحت قوله تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، وهو ما يظهر للعبد الفقير والله تعالى أعلم.

٣- ميقات السورة: اختلف العلماء في وقت نزولها، لاختلاف الآثار الواردة فيها، وتعارضها تعارضًا شديدًا، فذهب الجمهور إلى مكيتها كما يقول ابن الجوزي وأبو حيان وغيرهما، ونقل بعضهم الإجماع على مكيتها كما ذكر الشهاب الخفاجي في (حاشيته على تفسير البيضاوي)(٤٦).

وذهب آخرون إلى مدنيتها وهو القول الراجح كما سيأتي، ثم ذكروا فيها قولا ثالثًا فقالوا: إنها نزلت مرتين؛ تارة بمكة، وتارة بالمدينة، وصنَّف بعضهم في الانتصار لهذا القول مصنَّفًا على ما حكاه الشهاب الخفاجي، وهذا قولٌ قيل أيضًا في نزول سورة الفاتحة وغيرها، وهو قولٌ جدير بالضعف والتوهين، والجمهور على نبذِهِ ورَدِّه.

والمختار عند الشيخ النورستاني - تقبله الله - أنها نزلت بمكة بعد نزول سورة العاديات مباشرة، في سياقٍ جهاديّ فائق، وموالاةٍ زمانيةٍ ومكانيةٍ تهدف لاستنهاض الروح الجهادية، وإعدادها معنويًّا وروحيًّا ونفسيًّا قبل دخولها في مُعْتَرَكِ المرحلة القتالية بالمدينة، قال الإمام الرازي - رحمه الله - في تفسيره: (**السورة مكية في أصح الأقوال، وكان الأمر بالنحر جاريًا مجرى البشارة بحصول الدولة، وزوال الفقر والخوف**)(٤٧)، وفي قول الرازي هذا؛ ما يفيد جهادية السورة أيضًا، فإن قيام الدولة وزوال الفقر والخوف لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله؛ فهو التجارة الرابحة في الدنيا والآخرة.

والراجح من هذه الأقوال - والعلم عند الله - أنَّ سورة الكوثر مدنيّة، كما قال الحسن وقتادة ومُجَاهِد وعِكْرِمَة وغيرهم من السلف، وهو ما اختاره جمع من الأئمة كابن كثير، والنووي، وابن حجر، والخازن، والسيوطي وغيرهم، وقد استظهره واعتمد عليه جماعة من المفسرين في تفاسيرهم؛ كابن عاشور في (تحريره وتنويره)، لظاهر مقتضى الأمر والقِرَانِ الوارد في السورة بالصلاة والنحر المقرونة به، وهذا لا يكون إلا في الحج أو في عيد الأضحى على ما قالوا، والتشريع بهما لم يكن إلا في المدينة، ولظاهر ما صحَّ من سبب نزول السورة في شأن كعب بن الأشرف وشيوخ قريش من بعد غزوة بدر، ولظاهر الحديث الصحيح الذي يرويه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: (بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم بَيْنَ أَظْهُرِنَا؛ إذْ أَغْفَى إغفاءة، ثُمَّ رَفَعَ

---

(٤٦) عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (٤٠٢/٨)، دار صادر، بيروت.

(٤٧) تفسير الكبير المشهور بـ (مفاتيح الغيب) (٣٢٠/٣٢)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

رَأْسَهُ مُبْتَسِمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: "أنزلت عليَّ آنفًا سورة، فقرأ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾، ثم قال: "أَتَدْرُونَ ما الكوثر"؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنه نهر وعدنيه ربي - عزَّ وجل - عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عددُ النجوم، فيُختلج العبد منهم، فأقول: رب، إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثوا بعدك"[48].

قال الشيخ ابن عاشور في (تحريره وتنويره): (وَأَنَسٌ أَسْلَمَ فِي صَدْرِ الْهِجْرَةِ، فَإِذَا كَانَ لَفْظُ «آنِفًا» فِي كَلَامِ النَّبِي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُسْتَعْمَلًا فِي ظَاهِرِ مَعْنَاهُ وَهُوَ الزَّمَنُ الْقَرِيبُ، فَالسُّورَةُ نَزَلَتْ مُنْذُ وَقْتٍ قَرِيبٍ مِنْ حُصُولِ تِلْكَ الرُّؤْيَا)[49].

وحديث أنس هذا؛ هو أصح حديث في فضل هذه السورة، لأن تبسمه - عليه الصلاة والسلام - ودخول السرور والبهجة عليه بسبب نزولها؛ من أعظم ما يُستدل به على فضلها، والله تعالى أعلم.

ومما يستدل به على مدنيتها أيضا؛ ما جاء في حديث سعيد بن جبير، وفيه أنه قال: (نزلت هذه الآية يوم الحديبية، لما صد المشركون النبي - صلى الله عليه وسلم - عن البيت، أتاه جبريل - عليه السلام - فقال: انحر وارجع، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فخطب خطبة الفطر والنحر، ثم ركع ركعتين، ثم انصرف إلى البُدن فنحرها، فذلك قوله[50]: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾، قال الإمام مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني الأندلسي(ت: ٤٣٧هـ) بعد ذكره لخبر ابن جبير: (وهذا القول يدل على أن السورة مدنية)[51].

ويبدو أن سبب ورود الخلاف والإشكال على العلماء في القول بمكيتها أو بمدنيتها أو بنزولها مرتين، ما تكرر من حوادث وفاة أبناء النبي - عليه الصلاة والسلام - في مكة ثم في المدينة أيضا، فلما تكرر فرح الكافرين وشماتتهم بانقطاع ذريته من الذكور بمكة والمدينة، نشأ الخلاف في ذلك بين أهل العلم، فقال الأكثرون بأن السورة قد نزلت بمكة بعد الفقد الأول حينما توفي القاسم - عليه السلام -، وقال البعض: هي مكية ولكنها نزلت بعد الفقد الثاني حينما توفي عبد الله - عليه السلام -، وقال آخرون: بل نزلت

(٤٨) أخرجه البخاري مختصرًا في تفسير سورة الكوثر (٤٩٦٤)، ومسلم واللفظ له في الصلاة باب حجة من قال: البسملة آية من كل سورة (٤٠٠)، وأبو داود في السنة باب الحوض (٤٧٤٧ ـ ٤٧٤٨)، والترمذي في تفسير سورة الكوثر (٣٣٥٧)، والنسائي في الصلاة باب قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم) (١٣٣/٣ ـ ١٣٤).

(٤٩) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (٥٧١/٣٠)، الدار التونسية للنشر، (١٩٨٤ هـ).

(٥٠) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦٥١/٨)، للإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت.

(٥١) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٢/ ٨٤٧٠)، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

السورة بالمدينة بعد تكرر شماتتهم بتكرر فقده لأبنائه - عليه الصلاة والسلام -، وذهب بعضهم إلى أضعف الأقوال، فقالوا: إن السورة تكرر نزولها مرة بمكة، ومرة بالمدينة، لتكرر حوادث الفقد في زمنين ومكانين مختلفين.

والصواب أن سورة الكوثر نزلت مرة واحدة بالمدينة، فهي سورة مدنية تحمل طابع التعزية والتسلية، والتقوية والتبشير، وذلك لتكرر المصاب النبوي بفقد أبنائه، وتكرر شماتة الأعداء به، فكان نزولها وهي مترعة بالبشائر الكوثرية أليق وأنسب في تطييب قلبه - عليه الصلاة والسلام - وتثبيت فؤاده.

ويبدو - والعلم عند الله - أنها نزلت أيضًا للتوجيه والإرشاد بطريقة التعامل الجهادي الحازمِ الصارمِ البتَّار مع الشانئين من أمثال كعب بن الأشرف اللعين وطواغيت قريش، ولهذا صحح الإمامان ابن حبان في صحيحه، وابن كثير في تفسيره خبر ابن عباس - رضي الله عنهما - والذي فيه أن سورة الكوثر قد نزلت في شأن سخرية كعب بن الأشرف مع كفار قريش بالنبي - عليه الصلاة والسلام -، فكان تعامله الصارم معهم يوم بدر، ويوم نحر وبتر كعب؛ خير شاهد على ما نحن بصدده.

وأَيَّ الأمَرَيْنِ كان، فإنَّ هذه الروايات إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن نزول هذه السورة الكريمة كان في هذا الوقت الذي كانت تتحدث فيه قريش بهذه الشماتة والشتيمة المنكرة، وأن نزول السورة في وقت شماتتهم كان مناسبة جاءت في وقتها للتعزية والتسلية، والتقوية والتبشير، لا أن هذه الشماتة والشتيمة المنكرة كانت السبب الوحيد الباعث على نزول السورة أصالةً، إذْ إنَّ محامل السورة أعظم قدرًا، وأكبر شأنًا من أن تلتقي مع هذه الروايات، وما فيها من الشماتة بموت الولد وانقطاع النسل.

وخلاصة الأمر؛ أن نزولها بالمدينة قبل فتح مكة، فيه تثبيت لأفئدة المؤمنين، وتبشير لنفوسهم بقرب الفرج والنصر المبين، وفيه استنهاض للفأل، وتأنيس للأرواح بأن المستقبل لأتباع هذا الدين، وأن الخيرات والأفراح والمسرَّات قادمة وآتية لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه وأتباع دينه إلى يوم التناد، وأن الصولة والجولة والدولة له ولمن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين[٥٢].

٤- مضامين السورة: هذه السورة هي سورة النحر والبتر، والانتصار والانحسار، وقطع دابر الكافرين، **وقد اشتملت على ثلاث آيات، آية (تبشير) ثم آية (أمرٍ وتوحيد) ثم آية (تبشير وزجر)**، فهي في مجملها من المسليات والمبشرات النبوية التي نزلت بقصد تسلية النبي - عليه الصلاة والسلام - وتعزيته وتبشيره، فالشأن فيها كالشأن في (سورة الضحى) وسورتي (الشرح) و(النصر)، ففيها يخفف الرب -

---

(٥٢) قد انتصر الدكتور فضل عباس لمدنية هذه السورة من وجوه عديدة، وقال إنه كان يرى مكيتها ثم ظهر له من بعد التمحيص أنها مدنية، وناقش القائلين بمكيتها مناقشة عميقة يحسن الرجوع إليها في كتابه (إتقان البرهان) (٤٠٢/١)، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، دار الفرقان، عمان.

عز وجل - عن نبيه وعبده ما يواجهه من عداء الكافرين، ويخبره فيها بأنه حقق له موعوده الذي وعده إياه في سورة (الضحى) بقوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ الضحى: ٥، وفي سورة الشرح بقوله: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ الشرح: ٤، فهاهنا إخبار بتحقيق هذا الوعد، وهما عطاءان موهوبان، وبشارتان اثنتان، ومنحتان سماويتان، فقال له: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾، ثم قال له: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾، أي: أعطيناك الخير الكثير، المادي والمعنوي، في الدنيا والآخرة، ككثرة السواد الجهادي في الدنيا من ذريتك وأتباعك، ليحقق بهذا المدد الجهادي بتر أعدائك، وسيبقى هذا المدد مستمرًا إلى أن يرد حوض الموقف في الآخرة، ويستقي من ماء نهر الكوثر، وفي هذه البشارة ما يفيد بقرب فتح مكة، وتحقيق النصر والغلبة على الكافرين، ولأجل نماء هذين العطاءين، وتقوية دعوته وحركته الرسالية، أمره الله بأمرين اثنين، قياما بواجب الشكر والتقدير، ومقابلةً للنعمة بالعبادة، فأمره بشكر عطاء الله بالإقبال على الله، وجعل الأمر الأول مختصا بالكفة الأولى المتعلقة بالرب الـمُنعم بعطاء الكوثر، فقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، ثم جعل الأمر الثاني مختصًا بالكفة الثانية المتعلقة بالعدو الأبتر، فقال تعالى: ﴿ وَٱنۡحَرۡ ﴾، أي: عليك - أيها النبي - أن تتبع ملة أبيك إبراهيم الخليل، بأن تصلي لله مخلصا له الدين، وأن تجاهد مبغضيك الكافرين، فإنك إن امتثلت ذينك الأمرين معًا فستكون عاقبة أعدائك ومبغضيك الخسران والانبتار، وسيؤول أمرهم إلى انقطاع وانحسار، وسيقطع الله طرفا منهم، ويقطع دابرهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾ آل عمران: ١٢٦ – ١٢٧، فهذا الوعد المحقق بالانبتار هي إرادة الله التي لا راد لها، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الأنفال: ٧، وقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٥- ملخص السورة: **هذه السورة أولها بشرى من العزيز الحميد، وأوسطها أمر بالعبادة والتوحيد، وآخرها هزيمة للعدو العنيد**، فكأن الله تعالى يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: (**إننا أعطيناك - أيها الرسول - الخير الكثير الدائم، فليكن هذا العطاء سببا في شكرك لربك بمحافظتك على الدعاء والصلاة، ومواظبتك على إراقة الدماء، لكي ينصرك الله ويهزم عدوَّك ويقطع دابره**)، إذن فقد اشتملت السورة على عطاءين وأمرين، فجاء الأمر بالصلاة والنحر مُختَضَنًا ومحفوفًا بين عطاءٍ قبلي، وعطاءٍ بعدي، فالآية الأولى والثالثة اشتملتا على (**العطاءين الموهوبين**)، والآية الثانية اشتملت على (**العملين المطلوبين**)، فهي إذن كالميزان الذي يحوي كفتين ولسان، فالكفة الأولى فيها عطاء كثرة المدد الجهادي ووفرته،

والكفة الثانية فيها عطاء بتر الأعداء وقطعهم، وبينهما لسان الميزان وهو الأمر بالصلاة والنحر لله وحده لا شريك له، وبامتثال الأمر المطلوب، يؤول ما في الكفة الأولى من العطاء الكوثري بكثرة المجاهدين، ليحقق الله به ما في الكفة الثانية من بتر وقطع دابر الكافرين.

٦- مناسبات السورة: إن الكلام في مناسبات السور قد جر جمهور المتكلمين فيها إلى التكلف والتعسف كما يقول الإمام الشوكاني في تفسيره، ومع ذلك فلا يخلو بعض كلامهم في المناسبات القرآنية عن فائدة تبعث المرء إلى فهم السياق والمقصود، والتنقيب عن أسرار التنزيل، وتعميق التدبر فيه، ولهذا آمن كثير من المفسرين بأن سور القرآن منظومة بنظامٍ دقيقٍ أنيقٍ مُتَّسِقٍ كحبات العقد الواحد، حتى زعم غير واحدٍ منهم بأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وأن السورة الواحدة منه كالجملة الواحدة، والحق أنَّ سور القرآن آخذٌ بعضها بعناق بعض، في تواؤمٍ بديعٍ، وإحكامٍ رفيعٍ، ينطوي على أسرارٍ كامنة، كما ذكروا أن كل سورةٍ تشتمل على مناسبات بداخلها، كمناسبة أولها لآخرها، ومناسبة كل آية لما قبلها وبعدها، ومناسبة اسم السورة لمقصودها ومضمونها، ثم مناسبة السورة بخارجها، كمناسبتها بالسورة التي قبلها وما بعدها، ومناسبتها بالسور التي أتت بين يديها وما خلفها، من جهة نزولها ومكانها في المصحف، والله تعالى أعلم.

أما وجه مناسبة سورة الكوثر من داخلها، بمطابقة فاتحتها وأوَّلها، لخاتمتها وآخرها، ومناسبة عجزِها ومقطَعِها؛ لصدرِها ومطلَعِها، فهو ظاهرٌ في مدلول كلمة (الأبتر) الجامعة لكل معاني الضرر، وهي تعني: المنقطع من كل خير، أما مدلول كلمة (الكوثر)، فهي جامعة لكل معاني النفع، وتعني: الدائم المستمر من كل خير[٥٣]، وهذا التطابق يسميه بعضهم بالتطابق العكسي.

---

(٥٣) في باب بيان التآخي بين أوائل السور وأواخرها، ورد الأعجاز على صدورها، لا أعلم إلا رسالة يتيمة مفردة في هذا الباب، وهي رسالة الإمام السيوطي التي سماها (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)، وقد نشرتها دور الطبع العربية بتحقيقات عديدة، بيد أنَّ أفضلها؛ تحقيق وتكميل وتتميم الدكتور عبد المحسن العسكر، المطبوع بدار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض عام ١٤٢٦ هـ، بيد أن مؤلفها لم يتعرض لبيان وجه التناسب بين أول سورة الكوثر وآخرها، وكذلك المحقق المتمم لم يتعرض لذلك، ولم أجد من المفسرين إلا قليل ممن تعرضوا لذكر هذه المناسبة بين أولها وآخرها، وهذا النوع من المناسبات الداخلية قد أقره شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث نقل عنه تلميذه ابن عبد الهادي في اختياراته أنه قال: (فواتح السور تناسب خواتمها، وذلك تناسبٌ مظنونٌ)، وذكر بعد كلامه هذا تناسب فواتح سورة البقرة وآل عمران بخواتمها، فيحسن مراجعة كلامه ثمة.

أما موقع السورة من التي قبلها وهي (سورة الماعون)؛ فهو موقع ذكر النعمة من بعد النقمة، والعطاء من بعد الدَّعِّ والمنع، وذكر هزيمة أعداء الدين من بعد ذكر صفات المكذبين بالدين(٥٤)، وتنتظم هاتين السورتين في محور أساسيٍّ واحد: وهو (**التهديد والوعيد لأعداء الإسلام ورموزه العظام**).

ولقد تكلم الإمام الرازي في (مفاتح الغيب)، والإمام البقاعي في (نظم الدرر) وغيرهما عن مناسبة سورة الكوثر لما قبلها وما بعدها من السور، فذكروا أن سورة الماعون لما كانت مترعة بالنهي عن مساوىء الأخلاق، كانت بإفهامها داعية إلى معالي الشيم والشمائل، فجاءت سورة الكوثر لذلك الغرض، ولما كانت سورة الماعون قد ختمت بذم أبخل البخلاء، وأدنى الخلق، الذي يمنع الماعون عن الناس، تنفيرًا من بخله، وما جره البخل عليه من التكذيب بالدين، فَابْتُدِئَتْ سورة الكوثر بضِدِّ ما خُتِمَتْ به سورة الماعون من تقتير العطاء ومنع الماعون، فكانت فاتحتها بأجود الجود، وأكرم العطاء لأشرف الخلق، ترغيبًا في الجود والكرم وندبًا إليه، فكأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك السورة المختتمة بمنع الماعون.

وأما المناسبة بين سورة الكوثر وما بعدها؛ فإن سورة الكوثر فيها الأمر بالشكر بالصلاة والنحر والبتر للكافرين، وسورة الكافرون فيها الأمر بتكفيرهم ومخالفتهم، وثمة مناسبات واضحة وجليَّة بين سورة الكوثر وسورة الماعون التي قبلها، وسورة الكافرون التي تليهما، وهذه المناسبات تسمى عند أهل العلم بـ (ارتباط التقابل)، أي مقابلة الوصف المذموم بالوصف المحمود، ومقابلة العمل المذموم بجزائه في الدنيا والآخرة، وهي كما يلي:

---

(٥٤) يحسن كذلك مراجعة ما كتبه أهل العصور السابقة في هذا الباب كالرازي الذي بث هذا العلم في (التفسير الكبير)، وأبي السعود في (إرشاد العقل السليم)، وابن الزبير الغرناطي في (البرهان في تناسب سور القرآن)، والسيوطي في (تناسق الدرر في تناسب السور)، والبقاعي في (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، والمهائمي في (تبصير الرحمن)، وغيرهم ممن عرف باهتمامه بهذا الفن - رحمة الله على الجميع -.

كما يحسن الاطلاع على ما كتبه أهل العصر في هذا الباب؛ كالدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني في كتابه (إمعان النظر في تناسب الآيات والسور)، وكالدكتور محمد أحمد يوسف القاسم في كتابه (الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره)، وكالشيخ عبد الله محمد الصديق الغماري في كتابه (جواهر البيان في تناسب سور القرآن)، وكحكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي في رسالته (سبق الغايات في نسق الآيات)، وكالفراهي في (نظام القرآن)، وتلميذه أمين أحسن الإصلاحي في (تدبر القرآن)، وكالشيخ عبد السلام الرستمي في كتابه (توجيه الناظرين إلى مقاصد الكتاب المبين)، والشيخ محمد طاهر الأفغاني في (سمط الدرر في ربط الآيات والسور)، ولعلماء شبه القارة الهندية وخراسان عناية كبيرة بفن المناسبات، ولكن للأسف فإن جُلَّ تفاسيرهم لم تترجم إلى اللغة العربية، فبقيت كنوز علمهم محصورة عند العالم بلغات أقطارهم، ومن أهم من أبدعوا في هذا الفن؛ حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي في تفسيره (بيان القرآن)، والشيخ محمد شفيع الديوبندي في تفسيره (معارف القرآن)، والشيخ محمد إدريس الكاندهلوي في تفسيره الذي سماه أيضًا (معارف القرآن)، والشيخ حسين علي الألواني في (بلغة الحيران في ربط آيات الفرقان)، وما دَوَّنه تلامذته من إفاداته كتلميذه الشيخ محمد أمير البنديالوي في كتابه (الدرر المنثورة في ربط آية بآية وسورة بسورة)، والشيخ غلام الله البنجابي في تفسيره (جواهر القرآن)، وغيرهم - رحمة الله على الجميع -.

١- في (سورة الماعون) ذكر الله المكذِّب بالدين، وفي (سورة الكوثر) ذكر جزاءهم بالنحر والبتر، وفي (سورة الكافرون) أمر بالصدع بتكفيرهم، والبراءة من معبوداتهم، وعباداتهم، ودينهم.

٢- في (سورة الماعون) ذم الله السهو عن عبادة الصلاة، وفي (سورة الكوثر) أمر بعبادة الصلاة، وفي (سورة الكافرون) التمييز بين عبادات المشركين وعبادات الموحدين.

٣- في (سورة الماعون) ذم الله الرياء بالعمل لغير المعبود، وفي (سورة الكوثر) أمر بإخلاص العمل للمعبود، وفي (سورة الكافرون) التمييز بين أعمال ومعبودات الكافرين، وأعمال ومعبود الموحدين.

٤- في (سورة الماعون) ذم الله البخل ومنع العطاء، والتكذيب بالدين، وفي (سورة الكوثر) ذكر الجود وبذل العطاء، وإخلاص الدين، وفي (سورة الكافرون) ذكر الأمر بتكفير الكافرين بالدين.

وما أحسن ما ذكره الإمام الرازي - عفا الله عنه - في مناسبة سورة الكوثر بما يليها، كسورة الكافرون، وسورة النصر فقد قال: (**وَأَمَّا أَنَّهَا كَالْأَصْلِ لِمَا بَعْدَهَا؛ فَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُهُ بَعْدَ هَذِهِ السُّورَةِ بأن يكفِّر جميع أهل الدنيا بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ عَسْفَ النَّاسِ عَلَى مَذَاهِبِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ أَشَدُّ مِنْ عَسْفِهِمْ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ فِي نُصْرَةِ أَدْيَانِهِمْ، فَلَا جَرَمَ كَانَ الطَّعْنُ فِي مَذَاهِبِ النَّاسِ يُثِيرُ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْغَضَبِ مَا لَا يُثِيرُ سَائِرُ الْمَطَاعِنِ، فَلَمَّا أَمَرَهُ بِأَنْ يُكَفِّرَ جَمِيعَ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَيُبْطِلَ أَدْيَانَهُمْ، لَزِمَ أَنْ يَصِيرَ جَمِيعُ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي غَايَةِ الْعَدَاوَةِ لَهُ، وَذَلِكَ مِمَّا يَحْتَرِزُ عَنْهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، فَلَا يَكَادُ يُقْدِمُ عَلَيْهِ**، وَانْظُرْ إِلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَيْفَ كَانَ يَخَافُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَسْكَرِهِ، وأما هاهنا فَإِنَّ مُحَمَّدًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَلْقِ كَفِرْعَوْنَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، فَدَبَّرَ - تَعَالَى - فِي إِزَالَةِ هَذَا الْخَوْفِ الشَّدِيدِ تَدْبِيرًا لَطِيفًا، وَهُوَ أَنَّهُ قَدَّمَ عَلَى تِلْكَ السُّورَةِ هَذِهِ السُّورَةَ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يُزِيلُ عَنْهُ ذَلِكَ الْخَوْفَ مِنْ وُجُوهٍ؛ أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أَيِ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ وَعْدًا مِنَ اللهِ إياه بالنصرة والحفظ...**فَثَبَتَ أَنَّ مُخَاطَبَةَ اللَّهِ إِيَّاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ مِمَّا يُزِيلُ الْخَوْفَ عَنِ الْقَلْبِ وَالْجُبْنَ عَنِ النَّفْسِ، فَقَدَّمَ هَذِهِ السُّورَةَ عَلَى سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، حَتَّى يُمْكِنَهُ الِاشْتِغَالُ بِذَلِكَ التَّكْلِيفِ الشَّاقِّ، وَالْإِقْدَامِ عَلَى تَكْفِيرِ جَمِيعِ الْعَالَمِ، وَإِظْهَارِ الْبَرَاءَةِ عَنْ مَعْبُودِهِمْ، فَلَمَّا امْتَثَلْتَ أَمْرِي، فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْجَزْتُ لَكَ الْوَعْدَ، وَأَعْطَيْتُكَ كَثْرَةَ الْأَتْبَاعِ وَالْأَشْيَاعِ، إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا**) ا.هـ

٧- مميزات السورة: تميزت سورة الكوثر عن غيرها من السور بعدة امتيازات، وهي كالآتي:-

١- أنها أوجز وأعجز وأقصر سورة في القرآن من جهة عدد آياتها، وقلة ألفاظها وحروفها، على اتساعٍ وكثرةٍ في معانيها، وسعة الخلاف الوارد والكلام في تفسيرها، أما من جهة الألفاظ فقد اشتملت على عشر كلمات، وأما من جهة الحروف، فقد اشتملت على اثنين وأربعين حرفا.

٢- أنها اختصت في مجملها بذكر الأصول الثلاثة لهزيمة وبتر أعداء الرسول - عليه الصلاة والسلام -؛ وهي: تكثير المجاهدين بالدعوة والترغيب، والديمومة على التوحيد والصلاة والنحر، وقتال الأعداء لبترهم.

٣- أنها انفردت باشتمالها على الأسماء الثلاثة التي لم ترد في غيرها؛ وهي: (الكوثر)، و(شَانِئ)، و(الأبتر).

٤- أنها انفردت باشتمالها على صيغ الأفعال الثلاثة التي لم ترد في غيرها، وهي: (أَعْطَيناك)، و(فَصَلِّ)، و(انْحَرْ)، بإزاء ثلاث جمل اسمية وردت في مقابلها.

٥- تميزت السورة أيضا بمشابهتها لسورة القمر في كون رويِّها الكُلِّي – أي جميع أواخر آياتها منتهية - بحرف الراء.

٦- مما تميزت به السورة أيضا أنها لم تشتمل بتاتا على حرف الميم.

٧- تميزت السورة أيضا باشتمالها على عدة أحكام فقهية تفوق عدد آياتها، فمن هذه المسائل الفقهية التي ذكرها الفقهاء في هذه السورة: حكم الإيمان بحوض ونهر الكوثر، وحكم الشكر بإزاء النعمة، والفداء في مقابل العطاء، وحكم الصلاة عموما وصلاة عيد الأضحى خصوصًا، وحكم نحر البُدْنِ عمومًا وذبح الأضحية خصوصًا، وحكم تأخير الأضحية بعد أداء صلاة فجر وعيد الأضحى، وحكم ما أُهلَّ به لغير الله من الذبائح، وحكم رفع اليدين في الصلاة عند التكبير، وحكم استقبال القبلة، وحكم وضع اليمين على الشمال في الصلاة، وحكم الدعاء في الصلاة، ووجوب التوحيد والإخلاص لله، وحكم قتل مبغض النبي - عليه الصلاة والسلام -، وغير ذلك من الأحكام الفقهية التي استنبطوها في تفاسيرهم، وسيأتي الكلام على بعضها بإذن الله.

تفسير سورة الكوثر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾

أي: **إننا وهبناك وآتيناك - أيها الرسول - الخيرَ الكثيرَ البالغَ حدَّ الإفراط، من كل شيء في الدنيا والآخرة.**

يخبرنا الرب - جل جلاله - في هذا المطلع الرهيب للسورة بأنه رب جليلٌ كريمٌ كبيرٌ عظيم، وذلك بتكراره لضمير العظمة والكبرياء (نا) مرتين في أول كلمتين من مطلع السورة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾، أي: إننا - أيها الرسول - ما دمنا نحن الذين أعطيناك هذا العطاء الكوثري، فلا سبيل لأحد من العالمين أن يمنع عطايانا عنك، ولئن كان حولك من الأعداء من يحاولون أن ينتقصوا من قدرك العالي، فلتعلم أنني قد أعطيتك العلو عليهم في الدنيا، والعلو عليهم في الآخرة.

وإن المرء عندما يسمع ضمير الحق العظيم﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ وهو يجلجل في أذنيه مرتين في مطلع هذه السورة الجليلة، فإنه سيشعر شعورا مَهيبًا بأن ثمة خيرًا خطيرًا من العطاء الإلهي، وأن نهرًا ثجاجًا عظيمًا من الخيرات والبركات سوف يُوهَبُ وَيَنْصَبُّ صَبًّا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولابد أن يُناسِبَ هذا العطاءُ الجليلُ جلالَ الـمُعطِي - جل جلاله - في ضخامته واستمراره وديمومته وانصبابه، لأنَّ ذا الُّلبِّ المستقيم يُدرك أن أيَّ عطاءٍ سيكون على قدر قُدُرَاتِ الـمُعطِي وإمكانياته، فالمعطي إذا كان عظيمًا كبيرًا، فالعطاء لابد أن يكون كثيرًا وفائضا، وعطاء الله - سبحانه - لرسوله - عليه الصلاة والسلام - لا يناسبه إلا الفيض الدائم، ولا يناسبه بتاتًا أن يكون عطاءً أبترَ منقطع.

هذا؛ وإن السورة من مطلعها لمقطعها لتُؤكد على خدمة قضيتها الأساسية المحورية التي نزلت لأجلها، وهي قضية: (**استمرار العطاء الموهوب بديمومة العمل المطلوب**)، فهذا العطاء الموهوب؛ وهو كرم وفيض الله لرسول الله، الذي يأتي في مقدمته عطاء الإمداد والبقاء والامتداد لذريته الفاطمية وأتباعه المجاهدين، والضمور والانحسار والانبتار لأعدائه الشانئين كما قال السيد قطب - رحمه الله - في بدء تفسيره للسورة في (ظلاله)، وعليه فهذا الفيض الواسع والعطاء الكوثري لابد أن يكون فيضًا سخيًّا،

وعطاءً سرمديًا، لا ينفد ولا ينتهي، لأنه لا حصر لعطاء الله، ولا محدوديّة لكميته، فإنه القائل - جل جلاله -: ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ ﴾ النحل: ١٠٨.

وإن من المنبغي على المسلم أن يحيط فهمًا وإدراكًا بهذه اللفظة القرآنية الجليلة (الكوثر)؛ التي تُعَدُّ من أعلى أعلام القرآن وأوصافه، وأعمقها أثرًا في مصير الأمة الإسلامية، ولا غرو أن يقول في شأنها الشيخ عبد الحميد الفراهي - رحمه الله -: (**اعلم أن تأويل هذه السورة مخبوء تحت كلمة الكوثر**)(٥٥).

ولتقريب الإحاطة بها وفهمها فهمًا يناسب ما نحن بصدده من التأويل الجهادي، يقال: **إن أصل كلمة (كوثر) في لغة العرب؛ هي نعتٌ يوصف به الرجل السيد المتصف بكثرة البذل والعطاء، كما ذكر ابن فارس وابن منظور وغيرهما من أرباب المعاجم**، فأصل الكلمة في الاستعمال العربي يطلق على الرجال المتصفين بهذه الأوصاف قبل نزول القرآن، ومنه قول لبيدُ بن ربيعة:

وَصَاحِبُ مَلْحُوْبٍ فُجِعْنَا بِيَوْمِهِ *** وَعِنْدَ الرِّدَاعِ بَيْتُ آخَرَ كَوْثَرِ

وكذا قول الكُميتُ:

وأنتَ كثيرٌ يا ابنَ مَرْوانَ طيّبٌ *** وكانَ أبوكَ ابْنُ العَقائِلِ كَوْثَرَا

ومن هذا الباب أيضًا قولهم: (رَجُلٌ مَكْثُور)؛ وهو الرجل الذي تَكَاثَرَ عليه الأعداء ليقهَرُوه، كما ذكر صاحب (لسان العرب)، ولهذا قالوا في مَقْتل الحُسَينِ - عليه السَّلام -: (مَا رأينا مَكْثُورًا أَجْرَأَ مَقْدَمًا مِنهُ)، ثم انتقلت الكلمة عند بعض العرب من وصف الرجال إلى وصف الزيادة والكثرة في نسبة الأشياء، فوصف الهُذَلِيُّونَ الغبار المتراكِم بالكوثر، ومنه قول أُمَيَّة بن أبي عائذٍ الهُذَلِيّ:

يُحَامي الحَقِيقَ إذا مَا احْتَدَمْنَ *** وَحَمْحَمْنَ فِي كَوْثَرٍ كالجَلَالِ

أي: في غُبارٍ كثيرٍ متراكِمٍ كأنه جلالُ السَّفِينَة.

وقالوا أيضًا: (قَدْ تَكَوْثَرَ الغُبَارُ) إذا كَثُرَ وكان ساطعًا للعيان؛ ومنه قول حَسّان بن نُشْبَة:

أَبَوْا أَن يُبِيحُوا جَارَهُمْ لعَدُوِّهِمْ *** وَقَدْ ثارَ نَقْعُ المَوْتِ حَتَّى تَكَوْثَرا

---

(٥٥) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ص٤٨٤)، للعلامة القرآني عبد الحميد الفراهي (ت:١٣٤٩هـ)، مطبعة الدار الحميدية بالهند، ٢٠٠٨م.

ثم جاء الإسلام فانتقل بهذه الكلمة من الوصفيَّة إلى العلميَّة، فجعلها علمًا على نهرٍ وحوضٍ في الجنة.

ومن هنا يمكننا القول أيضًا؛ بأن العرب كانوا يتدرجون ثلاث درجاتٍ في الإفصاح عن نسبة العطاء ومقداره، وكثرة حجمه وزيادته، على النحو الآتي:

١- إذا استكثر العربي عطاءً فإنه يقول: (هذا عطاءٌ **كثير**).

٢- فإن أراد الزيادة والمبالغة في وصف العطاء، فإنه يقول: (هذا عطاءٌ **أكثر**).

٣- فإن أراد الغاية المفرطة والنهاية في وصف الكثرة، فإنه يقول: (أمَّا هذا فعطاءٌ **كوثر**).

فلفظة (كوثر) هي أوسع الألفاظ في لسان العرب تأديةً لمعنى الكثرة، لأن زيادة مبانيها تؤذن بزيادة معانيها، ولهذا فسَّرها جمعٌ من السلف بـ (الخير الكثير)، وزاد الزمخشري قيدًا مهمًا فقال: (المفرط في الكثرة)، لكن ثمة ملحظٌ بديعٌ من دقيق فقه اللغة، وهو أن لفظة (كثير) تأتي لزيادة أفراد نوع واحد من جنس واحد، فيُقال: (أُعطِيتُ مالًا كثيرًا)، أما لفظة (أكثر) فهي تأتي لزيادة عدد الأنواع من الجنس الواحد، فيقال: (أُعطِيتُ مالًا وذهبًا أكثر)، وأما لفظة (كوثر) فهي تأتي لزيادة الأنواع المتعددة من الأجناس المتعددة، فيقال: (أُعطِيتُ كوثرًا من الأموال والأولاد والأفضال وصنوف الخيرات)، فيصير معنى الآية أي: **إنا وهبناك - أيها الرسول - الكثير الأكثر البالغ حد الإفراط من كل خيرات الدنيا والآخرة.**

وعليه؛ فالكوثر هو الجامع لجميع الخيرات، وليس الزائد من الخيرات، والله - جل جلاله - قد وهب لنبيه - صلى الله عليه وسلم - الكثير الأكثر من كل أنواع الخيرات، وكل أجناسها الدنيوية والأخروية مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، غير أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - قد فسَّر (الكوثر) بنهر في الجنة كما ثبت في الحديث الصحيح، وقد أفادنا هذا الحديث بأن سبب تسمية هذا النهر بالكوثر لكثرة مائه وآنيته، وكثرة الشاربين منه في الآخرة، ثم جاء من بعده السلف الصالح من الصحابة والتابعين فأوردوا في تفسير (الكوثر) أقوالًا كثيرةً أخرى، تخالف ما ثبت من تفسير النبي - صلى الله عليه وسلم -، مع علمهم وإدراكهم بثبوته عنه..

فلماذا لم يكتفوا بتفسير رسول الله ؟!

فهل كان من دأب السلف مخالفة قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أم أن الحديث لم يبلغهم بطريق صحيح ؟!!

ويمكننا أن نقول في حَلِّ هذا الإشكال: إن السلف لم يخالفوا بتفسيرهم تفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وإنما فقهوا مراد الله ومراد رسوله على مقتضى اللسان العربي الذي نزل به الكتاب العزيز، فإنهم فهموا من لفظة (الكوثر) أنه لا يمكن بحالٍ أن يكون محصورًا بفردٍ واحدٍ، من نوعٍ واحدٍ، في جنسٍ واحد، ومحلٍ واحد، إذ إن الله كريم جواد رحيم، وعطاؤه على قدر جوده وقدرته وإمكانياته، وما النهر إلا شيء قليل في جنب كرم الله وقدرته، ومن هذا المنطلق اللغوي؛ انطلقوا مستيقنين أن مقتضى لفظة (الكوثر) يوجب اتساع أفراد العطاء الموهوب في كل أنواعه وكل أجناسه، كما يوجب اتساعه في محله ومداه ليشمل الخيرات في الدنيا مع الخيرات في الآخرة، ليناسب العطاء الموهوب ما يليق بكرم الله المرغوب، وليكون لمسمى السورة ولمدلولات ألفاظها من اسمها نصيب، من خلال اشتمالها على المعاني الكوثرية، والدلالات الواسعة، ومن هنا تعدَّدت أقاويل السلف على وجه التفسير بالمثال، والاكتفاء بذكر الجزء عن الكل[٥٦]، فقالوا: ما نهر الكوثر إلا أكمل وأخص أفراد الكوثر في الآخرة[٥٧]، بيد أن للكوثر أفرادًا دنيويةً وأخرويةً أخرى لا حصر لها، تصديقا بقول الله - جل جلاله -: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ النحل: ١٨.

ومن المناسب أن نسوق ما ثبت عن رسولنا - صلى الله عليه وسلم - في تفسير هذه اللفظة الجليلة، وما ورد عن السلف فيها، ثم نوضح السبيل الأمثل لحل هذا الإشكال الوارد بين أهل العلم، وتحرير محل النزاع في تعدد الأقوال والخلاف الوارد في تفسيرها.

(٥٦) قال أبو العباس ابن تيمية الحفيد - قدس الله روحه -: (مِنْ عَادَةِ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهِمْ أَنْ يَذْكُرُوا بَعْضَ "صِفَاتِ الْمُفَسَّرِ" مِنْ الْأَسْمَاءِ أَوْ بَعْضَ أَنْوَاعِهِ؛ وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ ثُبُوتَ بَقِيَّةِ الصِّفَات لِلْمُسَمَّى، بَلْ قَدْ يَكُونَانِ مُتَلَازِمَيْنِ، وَلَا دُخُولَ لِبَقِيَّةِ الْأَنْوَاعِ فِيهِ. وَهَذَا قَدْ قَرَّرْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي الْقَوَاعِدِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَمَنْ تَدَبَّرَهُ عَلِمَ أَنَّ أَكْثَرَ أَقْوَالِ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ مُتَّفِقَةٌ غَيْرُ مُخْتَلِفَةٍ. مِثَالُ ذَلِكَ قَوْل بَعْضِهِمْ فِي {الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} إنَّهُ الْإِسْلَامُ وَقَوْلٌ آخَرُ : إنَّهُ الْقُرْآنُ، وَقَوْلٌ آخَرُ: إنَّهُ السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةُ، وَقَوْلٌ آخَرُ : إنَّهُ طَرِيقُ الْعُبُودِيَّةِ. فَهَذِهِ كُلُّهَا صِفَاتٌ لَهُ مُتَلَازِمَةٌ لَا مُتَبَايِنَةٌ؛ وَتَسْمِيَتُهُ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ بِمَنْزِلَةِ تَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ بِأَسْمَائِهِ: بَلْ بِمَنْزِلَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى) ثم ذكر سبب وعلة الخلاف الوارد عن السلف فقال: (لِيَقْرُبَ الْفَهْمُ عَلَى الْمُخَاطَبِ كَمَا لَوْ قَالَ الْأَعْجَمِيُّ مَا الْخُبْزُ ؟ فَقِيلَ لَهُ : هَذَا وَأُشِيرَ إلَى الرَّغِيفِ، فَالْغَرَضُ الْجِنْسُ لَا هَذَا الشَّخْصُ، فَهَكَذَا تَفْسِيرُ كَثِيرٍ مِن السَّلَفِ، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ التَّعْلِيمِ).

(٥٧) قال أبو العباس ابن تيمية الحفيد - قدس الله روحه -: (الْكَوْثَرُ؛ أَعْظَمُ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، وَأَطْيَبُهَا مَاءً، وَأَعْذَبُهَا، وَأَحْلَاهَا، وَأَعْلَاهَا).

روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: (بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم بَيْنَ أَظْهُرِنَا؛ إذْ أَغْفَى إغفاءة، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُبْتَسِمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: "**أنزلت عليَّ آنفًا سورة، فقرأ:** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، ثم قال: "**أَتَدْرُونَ ما الكوثر**"؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: "**فإنه نهر وعدنيه ربي - عزَّ وجل - عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عددُ النجوم، فيُختلج العبد منهم، فأقول: رب، إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثوا بعدك**"(٥٨).

وفي قوله: "**عليه خير كثير**" إلماحٌ وإشعارٌ بأن نهر الكوثر ليس كل الكوثر الموهوب، ومن هنا أخذ سيدنا ابن عباس - رضي الله عنهما - وأصحابه في تفسيرهم للكوثر بأنه (الخير الكثير)، ولهذا ذهبوا إلى الوصْفية لا العَلَمِية، كما أشار إلى ذلك الشيخ عطية سالم - رحمه الله - في تتمة تفسير (أضواء البيان).

وروى البخاري في صحيحه عَن أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: "**أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ**".

وروى البخاري أيضًا في صحيحه عن أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، قَالَ: سَأَلْتُهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، قَالَتْ: "**نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ**".

وروى الترمذي في سننه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "**الكوثر نهر في الجنة**"، وقال الترمذي: حسن صحيح.

واختار هذا القول جماعة من السلف ونصوا عليه، ومنهم: أم المؤمنين الصِّدِّيقة عائشة - رضي الله عنها -، وسيدنا ابن عمر، وابن عباس، وأنس، ومجاهد، وأبي العالية، وغيرهم - رضي الله عنهم وأرضاهم - ، وذهب إليه من أهل التفسير مقاتل بن سليمان، وابن جرير الطبري، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، وأبو حيان، وابن حجر، والشربيني وغيرهم، وهذا حملٌ منهم للفظِ الكوثر على مصطلحِه

---

(٥٨) أخرجه البخاري مختصرًا في تفسير سورة الكوثر (٤٩٦٤)، ومسلم واللفظ له في الصلاة باب حجة من قال: البسملة آية من كل سورة (٤٠٠)، وأبو داود في السنة باب الحوض (٤٧٤٧ ـ ٤٧٤٨)، والترمذي في تفسير سورة الكوثر (٣٣٥٧)، والنسائي في الصلاة باب قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم) (١٣٣/٣ ـ ١٣٤).

الشرعي الثابت بالتفسير النبوي، وحمله غيرهم من السلف على معناه اللغوي، ولهذا ذكر أهل التفسير في معاني الكوثر أقوالا أخرى كثيرة، تعود إلى أصل معنى هذه المادة في اللغة، حتى أوصلها الرازي والقرطبي إلى ستة عشر قولًا[٥٩]، وابن النقيب في (تحريره) إلى ستة وعشرين، وبلغت عند بعض مشايخنا حدَّ الثلاثين، فقيل هو: النبوّة، والقرآن، والحكمة، والعلم، والإسلام، والكعبة، والتوحيد، ونور القلب، والمعجزات، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع والذرية، وإظهاره على الأديان كلها، والنصر والظفر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه إلى يوم القيامة، ورفعة الذكر، وغير ذلك، وهي - كما ترى - في أغلبها أفرادٌ من الخير الكثير الذي أعطاه الله - تعالى - لنبينا محمدٍ - صلى الله عليه وسلم -، ولهذا **ذهب الإمام القرطبي في تفسيره إلى أن أصح الأقوال عنده في تفسير الكوثر قولان، هما: النهر في الجنة، والحوض في الموقف**، ثم بعدما ذكر الأقوال الأربعة عشر قال: (**وَجَمِيعُ مَا قِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِهِ قَدْ أُعْطِيَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - زِيَادَةً عَلَى حَوْضِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليما كثيرا**).

إذن فالخلاف خلاف تنوّعٍ لا خلاف تضاد، والتفسير النبوي من جنس تفسير اللفظ ببعض ما يدل عليه، ويسميه العلماء بالتفسير بالمثال، فإن الكوثر يعم النهر وغيره، لهذا فإن التفاسير الكثيرة الواردة عن السلف، ما هي إلا نزوعٌ منهم إلى حَمْلِ اللفظِ على عمومهِ اللغوي، دون قَصْرِهِ على مصطلحه الشرعي وتفسيره الثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام، وحملُ اللفظ على عمومه اللغوي لا يُعارِضُ بحالٍ حمله على مصطلحه الشرعي، لأن مصطلحه الشرعي يُعَدُّ مِثالا واحدًا وجُزءًا من عمومه في اللغة، ومن هنا نفهم لماذا ذهب من السلف من ذهب إلى أنَّ نهر الكوثر بالجنة ليس هو كل الخير الكثير الذي وهبه الله للنبي - صلى الله عليه وسلم -، كما روى البخاري في صحيحه، من حديث أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال في الكوثر: (هو الخير الذي أعطاه الله إيَّاه)، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: (فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة)!، فقال سعيد: (**النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه**)، وبهذا القول يقول جماعة من أهل العلم كالبيضاوي، والقشيري، والسمرقندي، والبقاعي، والسعدي، وابن عثيمين - رحمة الله على الجميع -.

وكيفما كان الأمر؛ فالصواب أن يُقال: إنَّ حمل الكوثر على بعض الخير الكثير ليس بأولى من حمله على البعض الآخر، فإما أن يجب حمله على جميع ما صحَّ وثبتَ عن السلف قضاءً بحقِّ العموم، أو أنْ نختار

(٥٩) الجامع لأحكام القرآن (١٤٧/٢٠).

في التأويل ما يناسب نظم السورة وسياقها، وسِبَاقها ولِحَاقها، ليعود مقطعها مفسِّرًا لمطلعها، وقد رجَّحَ الشيخ النورستاني - تقبله الله - هذا الرأي الأخير، فاستحسن تأويل (الكوثر) بما يناسب نظم السورة وسياقها الظاهر بالاجتهاد والتأمل، من غير نفيٍ ودفعٍ للأقوال الواردة عن السلف في تأويلها، ولا الجزم بأن اختياره وترجيحه هو المراد القطعي من كلام الله - عز وجل -، وإنما هو قولٌ أداه إليه اجتهاده بعد الانطراح بين يدي الله - جل جلاله – وسؤاله أن يفتح عليه في فهم كلامه، لكن الأهم من ذلك أن ندرك مفهوم (الكوثر) من جهة الرواية والدراية واللغة، فأهل التفسير يرون أنَّ هذه اللفظة تصح أن تكون اسمًا علمًا، وتصح أيضًا أن تكون وصفًا لموصوفٍ محذوف، فعلى العَلَمِيَّةِ يكون حملها على مصطلحها الشرعي، وتفسيرها النبوي الروائي، وهو النهر الذي في الجنة، وعلى الوَصْفِيَّةِ يكون حملها على عموم معناها اللغوي، فيصح حينئذٍ حملها على جميع المصاديق الصحيحة الواردة عن السلف في تفسيرها، مما هي أفرادٌ وأمثلةٌ وأجزاءٌ من الخير الكثير الموهوب، وبهذا يصح الجمع في تفسير الكوثر بين الرواية والدراية.

وخلاصة ما اختاره الشيخ النورستاني في تأويل هذه الآية، أن كوثرية (الكوثر) تعم عطاء الدنيا والآخرة، لمجيء فعل الإعطاء بصيغة الماضي المفيد في تناوله لعطاء العاجلِ والآجل، ولما يحويه لفظ الكوثر من السعة والتنوع في الحال والمآل، ولأن الأدلة قد جاءت بأن دخول الأمة في كوثر الدنيا ينبني عليه تنعُّمهم بكوثر الآخرة، فإذا كان أخص أنواع الكوثر الأُخروي هو النهر الذي في الجنّة أو حوض الموقف، فإن أخص أنواع الكوثر الدنيوي هو السواد المحمدي والمدد الجهادي من أتباعه وذريته الفاطميَّة من آل بيته، الذين سَيَرِدُونَ للشرب من كوثره الأخروي، لأنهم آمنوا بنبوته، ودينه، وكتابه، وسنته، واهتدوا بهديه، ولهذا قال الإمام الرازي: (هذه السورة إنما نزلت ردًا على من عابه - عليه الصلاة والسلام - بعدم الأولاد، فالمعنى أنه يعطيه نسلًا يبقون على مرَّ الزمان، فانظر كم قُتِلَ من أهل البيت، ثم العالم ممتلىء منهم، ولم يَبْقَ مِن بني أميَّة في الدنيا أحدٌ يُعْبَأُ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا - عليهم السلام - والنفس الزكية وأمثالهم).

وتوجيه عطاء الكوثر بمثل هذا التوجيه هو الأليق والأنسب بمقصود السورة ومقصود العطاء، إذ إن ورود العطاء في مقام التكريم والامتنان، يقتضي أن يكون عطاءً محبوبًا ومرغوبًا فيه، وأن يكون منسجمًا مع طموحات الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأهدافه واهتماماته، وموافقًا لآماله ورغباته،

وقد مر آنفًا أنه - عليه الصلاة والسلام - كان يطمح إلى تكثير أمته، وتقوية حركته الرسالية بكثرة أتباعه وأنصار دعوته، ونشر دينه وشريعته، وإرغام أعدائه، وامتداد سلطانه في رِحَابِ المستقبل.

ومن جهة أخرى؛ فقد ذهب الشيخ النورستاني كذلك إلى أنَّ البتر في آخر السورة؛ بترٌ دنيويٌّ، وبترٌ أخروي، رَبْطًا لآخر السورة بصدرها، وقال أيضًا: (**إن تأويل (الكوثر) وشأن نزوله، لا يفهم إلا بتأويل (الأبتر) وشأن نزوله**)، ولئن كان الكوثر منه ما هو دنيويٌّ ديني ومنه ما هو غيبيٌّ أخروي، فكذلك البتر، منه ما هو بترٌ دنيويٌّ بسلب أولادهم منهم، وبتر قواتهم بالقتل والنحر والاصطلام، ومنه ما هو بترٌ أخرويٌّ بقطعهم عن التنعم بماء الكوثر في الآخرة، وقطع طريقهم عن دخول الجنة، وليس ثمة قطعٌ عن الخير أبلغ من ذلك القطع، نسأل الله العفو والعافية والسلامة من غضب الله ومقته.

والمقصود أنَّ الشيخ - تقبله الله - يرى أن السورة قد نزلت بشأن الشماتة بوفاة أبناء النبي - عليه الصلاة والسلام -، وأن طواغيت مكة قد فرحوا بانقطاع نسله فوصفوه بالأبتر لانبتار أولاده الذين كانوا سيقومون بنصرة دينه، وإبقاء ذكره، ونشر دعوته، فجاء الرد الشافي والجواب الكافي من الله - عز وجل - بأنه أعطاه في الدنيا كوثرا من الذرية والأتباع والمدد الجهادي المحمدي، من السادة الرجال المتصفين بكثرة البذل والخير والعطاء والفداء، وأن هذا السواد العظيم من أمته سيردون في الآخرة على كوثر أخروي وهو نهر في الجنة ليشربوا من مائه الزلال.

وبهذا الجمع والتركيب يتفق مدلول كلمة (الكوثر) من جهة الحقيقة الشرعية مع الحقيقة اللغوية.

وإن من آراء الشيخ النورستاني في التفسير؛ أن المفسر الحاذق هو من يراعي في تفسيره جانب توسيع المعاني، وإبقاء الألفاظ على عمومها، وجمعها لأفراد التنوع في الأقاويل بأوجز عبارة ممكنة، لما في ذلك من مراعاة مقصود التنزيل، ومراعاة كونه حمَّالًا للوجوه الكثيرة، والمعاني الجمة، ولتكون ألفاظ الكتاب عامَّةً وكوثرًا في دِلالاتها، لا سيما في هذه السورة، فإنَّ لفظة (الكوثر) تقتضي في ذاتها التوسعة والسيولة والتكثير، وحمل اللفظ على عمومه، وذلك من جهاتٍ أربع:

١- من جهة مجيء لفظة (كوثر) كصفةٍ مبنيةٍ على صيغة المبالغة.
٢- ولذات مدلول لفظة (كوثر) الدالة على النهاية والإفراط البالغ في الكثرة.
٣- ولتصدير لفظة (كوثر) بلام التعريف الاستغراقية المفيدة للشمولية.
٤- ولحذف موصوف لفظة (كوثر) ليكون أبلغ في عمومها وكمالها واتساعها.

وعليه؛ فحينئذ يكون قصر اللفظ على معنىً واحدٍ مما ثبت به النص عن الشارع على وجه التفسير بالمثال، مما لا يطابق مقتضى التنزيل في نظمه، ومقصودِهِ، وسِعَةِ مدلولِهِ.

ومن مذهب الشيخ النورستاني أيضًا في تجديد التفسير؛ أنه يسوغ للمتأخرين من المفسرين أن يلتمسوا ويركبوا معانٍ جديدةٍ أخرى تناسب حاجة الزمان، ومقاصد القرآن، من خلال توظيف اللغة والبلاغة، وإعمال المدارك العقلية في فهم المرويات النقلية المأثورة عن السلف الصالح، شريطة أن لا يأتي الـمُلْتَمَسُ من المعاني بإبطال الصحيح المأثور من تفاسيرهم(٦٠)، وأن لا يخالف المعنى الجديد ظاهر مدلول اللفظ القرآني، والمعلوم من اللسان العربي، وأن لا يخالف التفسير الجديد قطعيات الديانة ومقاصد التشريع، وأن لا يُجْزَمَ بأن هذا المعنى الجديد هو المراد القطعي الوحيد من كلام الله، وَرَدِّ ما سواه من صحيح المأثور.

وهذا النوع من التجديد قد لوحظ أيضا في تفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فإن من أسباب عدم تفسيره - عليه الصلاة والسلام - للكوثر بالكوثر الدنيوي ومعناه اللغوي، كالنبوة والحكمة والإسلام والقرآن وغيرها، أن ذلك كله كان قد نزل عليه منذ أمد، وكان - عليه الصلاة والسلام - أوَّل منفعلٍ بالنبوة والإسلام والقرآن، فهو عالم بهذه الكوثرية، ومدرك بأنها من عطاء الله الكوثري له، كيف وقد قال الله له: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ الحجر: ٨٧، فلم يك من المناسب أن يفسر لأمته الكوثر بالكوثر الدنيوي وعمومه اللغوي، مع إدراكهم للواقع الملموس، وإيمانهم بالحاضر المشهود، ولأنَّ ثمة أمرًا جديدًا قد طرأ عليه، وأن عطاءً كوثريًا أُخرويًّا قد جدَّ فَهْمُهُ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بواسطة الوحي، وليس على وجه الأرض يومئذٍ أحدٌ يعلمه من أمته غيره، فلهذا حرص النبي - عليه الصلاة والسلام - على بيانه للأمة لتجديد فهمهم به، ولأنه كوثرٌ غيبيٌّ أُخرَويٌّ لا

(٦٠) قد ذهب بعض كبار علماء التفسير من المتأخرين كالشيخ ابن عاشور إلى جواز إحداث قول في التفسير لم يقل به السلف، وقد فتح بذلك باب التجديد في التفسير على مصراعيه دون قيود، وهذا ظاهر من صنيعه في تفسيره تنظيرا وتطبيقا، مستدلا بأن القرآن نضَّاحٌ بالمعاني، وقد قرر جواز الإحداث في المقدمة الثالثة من تفسيره، ثم طبق رأيه هذا في مواضع عدة من تفسيره لكلام الله - جل جلاله -، وقد طرح وجوها جديدة من المعاني التي لم يقل بها أحدٌ قبله، بل هي مخالفة بالكلية لأقوال السلف وخارجة عن اتفاقهم وإجماعهم، كما في تفسيره للبينة من (سورة البينة)، وتفسيره لأسفل السافلين من (سورة التين)، وقد قال في مقدمة تفسيره: (أَقْدَمْتُ عَلَى هَذَا الْمُهِمِّ إِقْدَامَ الشُّجَاعِ عَلَى وَادِي السِّبَاعِ، مُتَوَسِّطًا فِي مُعْتَرَكِ أَنْظَارِ النَّاظِرِينَ، وَزَائِرًا بَيْنَ ضُبَاحِ الزَّائِرِينَ، فَجَعَلْتُ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أُبْدِيَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ نُكَتًا لَمْ أَرَ مَنْ سَبَقَنِي إِلَيْهَا، وَأَنْ أَقِفَ مَوْقِفَ الْحَكَمِ بَيْنَ طَوَائِفِ الْمُفَسِّرِينَ تَارَةً لَهَا، وَآوِنَةً عَلَيْهَا، فَإِنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى الْحَدِيثِ الْمُعَادِ، تَعْطِيلٌ لِفَيْضِ الْقُرْآنِ الَّذِي ماله مِنْ نَفَادٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّاسَ حَوْلَ كَلَامِ الْأَقْدَمِينَ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ معتكف فِيمَا أشاده الْأَقْدَمُونَ، وَآخَرُ آخِذٌ بِمِعْوَلِهِ فِي هَدْمِ مَا مَضَتْ عَلَيْهِ الْقُرُونُ، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ ضرّ كثير، وَهنالِكَ حَالَةٌ أُخْرَى يَنْجَبِرُ بِهَا الْجَنَاحُ الْكَسِيرُ، وَهِيَ أَنْ نَعْمِدَ إِلَى مَا شاده الْأَقْدَمُونَ فَنُهَذِّبَهُ وَنَزِيدَهُ، وَحَاشَا أَنْ نَنْقُضَهُ أَوْ نُبِيدَهُ، عَالِمًا بِأَنَّ غَمْضَ فَضْلِهِمْ كُفْرَانٌ لِلنِّعْمَةِ، وَجَحْدَ مَزَايَا سَلَفِهَا لَيْسَ مِنْ حَمِيدِ خِصَالِ الْأُمَّةِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ الْأَمَلَ، وَيَسَّرَ إِلَى هَذَا الْخَيْرِ وَدَلَّ).

كالكوثر الدنيوي الحاضر الذي يشاهدونه ويعرفونه وهو ماثلٌ بين أيديهم، ولهذا قال لهم يومئذ: "**أتدرون ما الكوثر**"؟، يعني ما استجد له من الفهم بعدما فهم الصحابة منه سابقا ما فهموه، فقالوا حينئذ: (الله ورسوله أعلم)، فقال لهم: "**فإنه نهر وعدنيه ربي - عزَّ وجل - عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة...**"(٦١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (وَالْكَوْثَرُ الْمَعْرُوفُ إنَّمَا هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ كَمَا قَدْ وَرَدَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْكَوْثَرُ إنَّمَا هُوَ مِن الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إيَّاهُ، وَإِذَا كَانَ أَقَلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْ لَهُ فِيهَا مِثْلُ الدُّنْيَا عَشْرُ مَرَّاتٍ، فَمَا الظَّنُّ بِمَا لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُ فِيهَا، **فَالْكَوْثَرُ عَلَامَةٌ وَأَمَارَةٌ عَلَى تَعَدُّدِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُ مِن الْخَيْرَاتِ، وَاتِّصَالِهَا وَزِيَادَتِهَا، وَسُمُوِّ الْمَنْزِلَةِ وَارْتِفَاعِهَا**)(٦٢).

إذن فـ (نهر الكوثر) ليس كل (الكوثر)، بل هو قطعًا بعضٌ منه، لكنَّه أكملُه، وأبعَدهُ، وأعلَاهُ، وأخصهُ، وأجمله، فلهذا خصَّه النبي - صلى الله عليه وسلم - بالذكر على سبيل التمثيل بالأعلى والأخص منزلةً، ولأن هذا الكوثر الغيبي الأخروي لن يناله إلا من حقَّق الإيمان بالكوثر الحسيّ الدنيوي، بالإيمان بنبوته، ودينه، وقرآنه، وحكمته، ثم دخل في أتباعه وشيعته، وتشهَّد بشهادته إلى يوم الدين.

وفذلكة القول في (الكوثر) أن يُقال فيه: إنه كوثران؛ كوثرٌ دنيوي، وكوثرٌ أخروي:

فالأول: **دنيويٌ عام**، وهو ما في الدنيا من الخير الكثير المادي والمعنوي الذي لا يُحصى، مما وهبه الله لرسوله في الدنيا، وأخصه وأكمله وأنسبه بنظم السورة: **كثرة المدد الجهادي ووفرته من السادة الرجال والقادة الأبطال**، وسبب الترجيح: أنَّ هذا المعنى يناسب مدلول لفظة (الكوثر) في أصل الوضع اللغوي، ويعاكس أيضًا مراد الشامتين بنعته بوصف (الأبتر)، ويناسب أيضًا ما روي من أسباب نزولها.

والثاني: **أخرويٌ خاص**، وهو ما في الآخرة من الخير الكثير المادي والمعنوي الذي لا يُحصى، وأخصه وأكمله ذلك **الحوض والنهر** الذي أكرم الله به رسوله محمدًا - صلى الله عليه وسلم - في الموقف والجنة،

---

(٦١) أخرجه البخاري مختصرًا في تفسير سورة الكوثر (٤٩٦٤)، ومسلم واللفظ له في الصلاة باب حجة من قال: البسملة آية من كل سورة (٤٠٠)، وأبو داود في السنة باب الحوض (٤٧٤٧ ـ ٤٧٤٨)، والترمذي في تفسير سورة الكوثر (٣٣٥٧)، والنسائي في الصلاة باب قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم) (٣/١٣٣ ـ ١٣٤).

(٦٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦- ٥٣٠).

والذي سيشرب منه السواد الأعظم من أتباعه في الآخرة، وهو أول ما يدخلُ أصالةً في تفسير الآية بلا ريب ولا إشكال.

وبما أن عطاء الكوثر عطاءٌ إيمانيٌّ متجددٌ ومستمر، فمن المناسب أن يأتي الأمر بما يقتضي استمرارية نموه وازدياده، وتقوية الصلة بمصدر هذا الفيض الكوثري وصاحب إمداده وهو الله - سبحانه وتعالى -، ولهذا جاء التعقيب والتفريع في الآية الثانية مبنيًّا على هذه القاعدة القرآنية؛ لتقول لكل قارئ للقرآن وبكل اختصار وإيجاز: (**إنَّ حجم العَدَاء قد أوجب للعبد كوثرية العطاء، وإنَّ كوثرية العطاء لتستوجب من العبد كوثرية الفداء**)، فجاء الأمر حينها بالصلاة وهي فداء العبد ربَّهُ بوقته وخشوع قلبه، ثم جاء الأمر بالنحر وهو فداء العبد ربَّهُ بماله ونفسه وولده..

فقال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾

أي: **فبسبب تخصيصك بهذا العطاء الوفير الكثير؛ حافظ على صلاتك مخلصًا لربك، وواظب على إهراق الدماء تقرُّبًا لخالقك.**

واتفق أهل التفسير على أن مقصود الآية: الأمر بشكر النعمة بالمواظبة على الصلاة والنحر، مع توحيد الله في العبادة، والإخلاص له في الطاعة، وحده لا شريك له، وهذا لأن فاء التعقيب قد استعيرت هاهنا للتسبيب[٦٣]، أي: (**فلتجعل عطاء الكوثر سببا في شكرك لربك بأن تصلي وتنحر له وحده لا شريك له**)، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ قريش: ٣ - ٤، وقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠.

كما ذهبوا إلى أن مدلول الصلاة في أصل اللغة: الدعاء، وأن مدلول النحر في أصل اللغة: إصابة المنحر، وهو ملتقى الرقبة بالصدر.

ثم اختلفوا من بعد ذلك في تعيين هذه الصلاة، وفي معنى هذا النحر على عدة أقوال[٦٤]**، أشهرها أنها الصلاة المقرونة بالنحر، وهي صلاة عيد الأضحى ونحر الأضاحي في يوم النحر**، وبنى عليه بعضهم أن المراد تقديم أداء صلاة فجر يوم الأضحى أو صلاة عيد النحر على نحر الأضاحي، وهذا بلا ريب داخلٌ في عموم الآية، وليس لهم عليه من دليل سوى دليل القِرَان والاقتران، ودلالة الاقتران عند جمهور الأصوليين دلالة ضعيفة ما لم تعتضد بدليل من غيره، **والأصوب عند الشيخ النورستاني حَمْلُ ألفاظ السورة على وجه العموم، فليس حَجْرُ الصلاة والنحر على وجه التخصيص لبعض أفرادها مما يليق باسم السورة ولا مقصودها، بل الأرجح تَرْكُ دِلالة ألفاظها جاريةً على عموم اتساعها، لتسيل سيلانًا عامًا كسيلان نهر الكوثر الشاخب، فتعُمَّ دلالتها كلَّ صلاةٍ وكلَّ نحرٍ لله - عز وجل -، وليُناسِبَ المأمور به والمطلوب، ما بُنِيتْ عليه السورة من كوثرية الموهوب.**

---

(٦٣) ذهب الإمام ابن هشام - رحمه الله - في (مغني اللبيب) إلى وجوب حمل هذه (الفاء) في سورة الكوثر على معنى السببية المحضة.

(٦٤) قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في (زاد المعاد): (وَالذَّبَائِحُ الَّتِي هِيَ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ وَعِبَادَةٌ هِيَ ثَلَاثَةٌ: الْهَدْيُ، وَالْأُضْحِيَّةُ، وَالْعَقِيقَةُ).

هذا؛ وقد ذهب الشيخ النورستاني - تقبله الله - إلى أنَّ القولَ بتخصيص الصلاة بصلاة عيد الأضحى والنحر بنحر الأضاحي من بعدها؛ قولٌ غيرُ سديد، إذْ فيه تضييقٌ وتحجيرٌ لمراد الله - عز وجل -، هذا مع تمسُّك الشيخ بمذهبه في وجوب أداء صلاة العيد على كل مسلم مكلف بها، ووجوب نحر الأضحية من بعدها على الرجل والمرأة المكلفين وإن كانا زوجين، **ويرى الشيخ أن القضية الأساسية في السورة تقوم على مبدأ الكوثرية في العطاء والطلب، مما يقتضي كوثرية معانيها، واتساع مدلولاتها، فقصر معانيها على أي خصوصية لا يخدم قضيتها الأساسية، ولا يناسب اسمها، ولا نظمها، ولا مقصودها، ولا كوثرية العطاء الموهوب فيها، فلا يليق بالمفسِّرِ حينئذٍ أن يصير إلى ذلك، كما أن جعل السورة سورة جهادية لا يراد به قصر معانيها على هذه المعاني الجهادية فحسب، وإنما إضافة هذه المعاني الجهادية إلى فهم دلالتها الواسعة الأخرى، بلا تحجيرٍ ولا تخصيص، فالقرآن حمَّال أوجه كما هو معلوم، ويقول الشيخ - تقبله الله -:** (**إن كوثرية عطاء الله الموهوب، تقتضي شكره بكوثرية العمل الفدائي المطلوب، فقصر الطلب على أداء ركعتين في كل عام مرة واحدة، مع التَّصدُّق بلحم شاةٍ أو بقرةٍ أو بدنةٍ واحدة في كل الحول والسنة، لا يناسب وفرة العطاء الكوثري الموهوب في مطلع السورة، ولو كان العمل المطلوب مقصورًا على صلاة عيد الأضحى ونحر الأضحية بعد صلاة العيد فحسب، لخفَّ في مقابلها وزن هذا العطاء الموهوب الذي أعطاه الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم -** [٦٥]**، فكان الأنسب شرعًا وعقلًا أن يأتي الطلب واسعًا والأمر شاملًا، ليكون مناسبًا للعطاء في كوثريته، ولهذا كان توسيع دلالة هذا الطلب مما يقتضيه الحال والمقام والنظم، لا سيما وأن قيمة الكلمة القرآنية مكنونةٌ في قدرتها على توسُّعِهَا في دلالاتها**)، ولهذا استحسن شيخنا التعميم والتوسيع الذي اختاره الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله – حيث قال: (**وأَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتَك كلَّها لربِّكَ خالصًا دون ما سواه من الأندادِ والآلهة، وكذلك نحرَكَ اجعله له دونَ الأوثان، شكرًا له على ما أعطاك من الكرامةِ والخيرِ الذي لا كُفْءَ له، وخصَّكَ به من إعطائه إياكَ الكوثر،** وإنما قلت: ذلك أولى الأقوال بالصواب في ذلك؛ لأن الله جلَّ ثناؤه أخبر نبيَّه صلى الله عليه وسلم بما أكرمَه به من عطِيَّتِه وكرامتِه وإنعامِه عليه بالكوثر، ثم أتبع ذلك قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾، فكان معلومًا بذلك أنه خصَّه بالصلاة له، والنحر على الشكرِ له، على ما أعلمَه من النعمة التي أنعمَها عليه

(٦٥) هذه الموازنة استفادها شيخنا النورستاني من كلام الإمام ابن العربي المالكي في كتابه (أحكام القرآن) (٤/٤٢٣) حين قال: (وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ أَرَادَ: أُعْبُدْ رَبَّك وَانْحَرْ لَهُ، وَلَا يَكُنْ عَمَلُك إلَّا لِمَنْ خَصَّك بِالْكَوْثَرِ، وَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ الْعَمَلِ يُوَازِي هَذِهِ الْخَصِيصَةَ مِنَ الكَوْثَرِ، وَهُوَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ الَّذِي أَعْطَاك اللَّهُ إيَّاهُ، أَوْ النَّهْرُ الَّذِي طِينَتُهُ مِسْكٌ، وَعَدَدُ آنِيَتِهِ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، **أَمَّا أَنْ يُوَازِيَ هَذَا صَلَاةَ يَوْمِ النَّحْرِ وَذَبْحَ كَبْشٍ أَوْ بَقَرَةٍ أَوْ بَدَنَةٍ فَذَلِكَ بَعِيدٌ فِي التَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ وَمُوَازَنَةِ الثَّوَابِ لِلْعِبَادِ**).

بإعطائه إياه الكوثر، **فلم يكن لخصوصِ بعض الصلاة بذلك دون بعضٍ، وبعضِ النحر دون بعضٍ وجهٌ، إذ كان حثًّا على الشكر على النِّعَم.** فتأويل الكلام إذن: إنا أعطيناك يا محمد الكوثر، إنعامًا منَّا عليكَ به، وتكرِمةً منَّا لك، **فأخلِص لربِّك العِبادة، وأَفْرِدْ له صلاتَك ونُسُكَك، خلافًا لما يفعله من كَفَرَ به، وعبدَ غيره، ونحر للأوثان).**

وقد لاحظ الشيخ النورستاني في حذفِ مفعول الفعلين: ﴿فَصَلِّ﴾ ﴿وَٱنْحَرْ﴾، ما لاحظه أهل العلم من حذف موصوف صفة:﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾، مستعيرًا تعليل أهل البلاغة له كما في (تحرير وتنوير) ابن عاشور، و(كشَّاف) الزمخشري، وتقريرات أرباب الحواشي على الكشاف والبيضاوي، بما في حذفه من فرط الإبهام والشياع، وتناول المعاني على جهة الاتساع، ولأجل أن تذهب نفس المتدبر في تقديرِ المحذوف وتصويره كُلَّ مذهبٍ مُمْكِنٍ يحتمله اللفظ بِحَسَبِ المقام والنظم، وبحسب مقصود السورة وسياقاتها، ولما فيه من تَوَلُّدِ مَعَانٍ من مَعَانٍ أُخَرَ كلما كَرَّرَ الـمُتَدَبِّرُ تدبُّره في فهمها، ولا يخفى على العالم بفنون اللسان العربي ما في حذف المتعلقات والمفاعيل والإجمال للمدلولات من إفادة تعدد الأوجه، واتساع الدلالات، وفتح مجال التدبر الصحيح؛ ليذهب المتدبر في انتزاع المعاني منها كُلَّ مذهبٍ يسمح به اللفظ، والنظم، والمقصود، والمقام.

وحاصل مذهب الشيخ النورستاني في تقدير المحذوف؛ ترك ترجيح تقديره للفهم، ليذهبَ العقل في تقديره كُلَّ مذهبٍ مُمْكن، على أنَّ في حذف المفعول وطَيِّ ذِكْرِهِ ما فيه من تَوْفِير سرد ما تطلبه الشريعة من إراقة الدماء، وَلا يبعد أن يكون هذا الطَّيُّ والحذفُ مَقْصُودًا في سورة الكوثر، لَتَتكاثر خُطُورُ المعاني وورودها في الأذهان، وَلِتَتَكَرَّرَ العِبْرَةُ باعتبار وَقْعِ كُلِّ مَعْنًى في نفس المتدبر، وذلك من خصائص كوثرية معاني هذه السورة، ووفرة دلالاتها، مع إيجاز ألفاظها، وإلا لما وقع التحدي بها، والإعجاز في إيجازها.

ولا أُبرِّئُ شيخي - تقبله الله - من ولعه الشديد بمحذوفات التنزيل، فإنه كان ميَّالًا لآراء الجرجاني والزمخشري في أبواب الإعجاز والفصاحة، فيرى أن أسرار البلاغة والجزالة والإعجاز والإيجاز كامنة في محذوفات التنزيل، وما في أعطافها من مكنونات التأويل، ولذا قال العلامة ابن عاشور في تفسيره: (وَإِنَّكَ لَتَمُرُّ بِالْآيَةِ الْوَاحِدَةِ فَتَتَأَمَّلُهَا وَتَتَدَبَّرُهَا فَتَنْهَالُ عَلَيْكَ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ يَسْمَحُ بِهَا التَّرْكِيبُ عَلَى اخْتِلَافِ الِاعْتِبَارَاتِ فِي أَسَالِيبِ الِاسْتِعْمَالِ الْعَرَبِيِّ، وَقَدْ تَتَكَاثَرُ عَلَيْكَ فَلَا تَكُ مِنْ كَثْرَتِهَا فِي حَصْرٍ، وَلَا تَجْعَلِ الْحَمْلَ عَلَى بَعْضِهَا مُنَافِيًا لِلْحَمْلِ عَلَى الْبَعْضِ الْآخَرِ إِنْ كَانَ التَّرْكِيبُ سَمْحًا بِذَلِكَ، فَمُخْتَلِفُ الْمَحَامِلِ

الَّتِي تَسْمَحُ بِهَا كَلِمَاتُ الْقُرْآنِ وَتَرَاكِيبُهُ وَإِعْرَابُهُ وَدَلَالَتُهُ، مِنِ اشْتِرَاكٍ وَحَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ، وَصَرِيحٍ وَكِنَايَةٍ، وَبَدِيعٍ، وَوَصْلٍ، وَوَقْفٍ، إِذَا لَمْ تُفْضِ إِلَى خِلَافِ الْمَقْصُودِ مِنَ السِّيَاقِ، يَجِبُ حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى جَمِيعِهَا).

هذا؛ وقد ذهب جمهور أهل العلمِ إلى أنَّ النَّحْرَ خاصٌّ بالبُدْنِ والإبِلِ من الأنعام، وأما غيرها فيطلق فيها الذبح حقيقةً، والنحر كنايةً[٦٦]، ففرَّعوا على ذلك أن مقصود الآية الأمر بكوثرية بذل الفداء والعطاء من خلال الأمر بنحر الإبل، لأن الإبل أكثر لحمًا، وأغلى ثمنًا، وأشد بالنفس تعلُّقًا، فكان الجود بها مما تشح به غالب الأنفس، غير أن الضأن أفضل في الأضحية عند الجمهور، والنبي لم يضح إلا بالضأن، فكان الأمر بالنحر لها يتناولها إلا على غير وجه الحقيقة، لأن الضأن تذبح ولا تنحر، وعليه فالأمر بالنحر هاهنا إذا كان محمولا على الأضحية في عيد الأضحى فهو إما أن يكون كناية، وإما أنه سيق للتغليب ليشمل الضحايا في البدن، والهدايا في الحج، وبسبب هذا التغليب رُوعِيَ في عيد الأضحى تسميته بعيد النحر، **واختار الشيخ النورستاني - تقبله الله - أن لفظ النحر يحمل على الكناية والتغليب معًا، فيشمل الأمر بالنحر نحر الإبل حقيقةً، وذبح البقر والضأن كنايةً، وقتل الأعداء الشانئين لرسول العالمين كنايةً أيضًا، ليتم بذلك ربط الآية بما بعدها، ولتحقيق مقصود السورة وسياقها ببترهم واستئصال شأفتهم، ولهذا كان يرى توسيع دلالة لفظ (النحر) فوق توسعة الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله -، ويستدل شيخنا بفعل سيدنا ابن عباس وابن جبير - رضي الله عنهما - في توسعتهم لمدلول (الكوثر) وتفسيرهم له بالخير الكثير العميم في الدنيا والآخرة، مع شموله للنهر والحوض الثابت في التفسير النبوي، ويرى الشيخ النورستاني أن تلك التوسعة خليقة بهذه السورة، هذا مع قوله بمكيتها، وأنه لم يكن بمكة يومئذ نحر للأضاحي ولا نحر للأعداء، ولكن سيق الأمر بالنحر مع إبهام المنحور، ليكون فيه تشويقًا، وتبشيرًا، وتأهيلًا للنفوس وإعدادها للجهاد في سبيل الله.**

وممن ذهب إلى توسعة دِلالة (النَّحْرِ) من العلماء السابقين: الإمام العلامة المحقق ابن أبي الشريف المقدسي الشافعي[٦٧] (ت:٩٢٣هـ) في تفسيره لسورة الكوثر المسمَّى بـ (عقود الدر والجوهر في نبذة

(٦٦) قال الشيخ عطية سالم في (تتمة أضواء البيان) (٥٧٣/٩): (وَاتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ النَّحْرَ لِلْإِبِلِ، وَالذَّبْحَ لِلْغَنَمِ، وَالْبَقَرَ مُتَرَدَّدٌ فِيهِ بَيْنَ النَّحْرِ وَالذَّبْحِ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْأَفْضَلُ، وَلَوْ عَمَّمَ النَّحْرَ فِي الْجَمِيعِ، أَوْ عَمَّمَ الذَّبْحَ فِي الْجَمِيعِ لَكَانَ جَائِزًا، وَلَكِنَّهُ خِلَافُ السُّنَّةِ. وَقَالُوا: إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي تَخْصِيصِ الْإِبِلِ بِالنَّحْرِ، هُوَ طُولُ الْعُنُقِ، إِذْ لَوْ ذُبِحَتْ لَكَانَ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى مَحَلِّ الذَّبْحِ بَعِيدًا فَلَا يُسَاعِدُ عَلَى إِخْرَاجِ جَمِيعِ الدَّمِ بِيُسْرٍ، بِخِلَافِ النَّحْرِ فِي الْمَنْحَرِ، فَإِنَّهُ يُقَرِّبُ الْمَسَافَةَ وَيُسَاعِدُ الْقَلْبَ عَلَى دَفْعِ الدَّمِ كُلِّهِ، أَمَّا الْغَنَمُ فَالذَّبْحُ مُنَاسِبٌ لَهَا، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى).

(٦٧) هو الإمام العلامة المفسر برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي بكر المقدسي الشافعي العروف بابن أبي الشريف (٨٣٦ - ٩٢٣هـ)، من العلماء الأجلاء في القرن التاسع الهجري، ومن تلاميذ الإمام المحدث ابن حجر العسقلاني، والإمام الأصولي جلال الدين المحلي، ترجم له البقاعي في (عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران) وقال عنه: (إنه في العشرين من عمره صار من نوادر الزمان)، وترجم له السخاوي في (الضوء اللامع

من أسرار سورة الكوثر)، فذكر من المعاني المندرجة تحت قوله ﴿وَٱنْحَرْ﴾: (الأمر بنحر الأعداء، وهو كناية عن قتالهم)[٦٨]، وهذا المعنى ظاهرٌ من لفظ الآية، ولا يناقض قول السلف، لأنه معنًى صحيحٌ في ذاته، ولا يجزم الشيخ النورستاني بأنه المعنى المراد حصرًا دون غيره، وإنما يقول: (إنَّ اللفظ يحتمله بدلالة المطابقة والموافقة لظاهره وظاهر سياق السورة ونظمها وسبب نزولها، ومطابقته لفروع الشريعة وأصولها)، وهذا القول عند الشيخ النورستاني أقرب لفهم السامع مما رُوِيَ وَصَحَّ عن بعض السلف من أن المراد بالنحر رفعُ اليد إلى النحر عند التكبير في الصلاة، أو رفعها عند استقبال القبلة في الصلاة بالنحر، أو وضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة قرب النحر، وهي المعاني الثلاثة التي استغربها الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره، وعقَّب عليها بقوله: (وكل هذه الأقوال غريبة جدًا، والصحيح القول الأول، وأن المراد بالنحر ذبح المناسك، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي الْعِيدَ ثُمَّ يَنْحَرُ نُسُكَهُ وَيَقُولُ: "مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَنَسَكَ نُسُكَنَا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ")، ثم حسَّن ابن كثير ما رجَّحه الطبري من القول بالتعميم، وقال: (وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى محمد ابن كعب القرظي وعطاء)[٦٩].

واستغرب هذه الأقوال أيضا الإمام ابن القيم - رحمه الله - كما في كتابه (الصواعق المرسلة) فقال: (وقال آخرون في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾؛ إن المراد به: ضع يدك على نحرك، وتكايس غيره وقال: المعنى: استقبل القبلة بنحرك، فهضموا معنى هذه الآية التي جمعت بين العبادتين العظيمتين الصلاة والنسك)[٧٠].

ولم يختلف الشيخ ابن عاشور مع الإمامين ابن القيم وابن كثير في استغراب أقوال السلف الأوائل، فإنه قد قال في هذا الموضع من (تحريره وتنويره): (وَلِلْمُفَسِّرِينَ الْأَوَّلِينَ أَقْوَالٌ أُخَرُ فِي تَفْسِيرِ ﴿وَٱنْحَرْ﴾ تَجْعَلُهُ لفظا غَرِيبا).

لأهل القرن التاسع)، والسيوطي في (نظم العقيان في أعيان الأعيان)، والداوودي في (طبقات المفسرين)، وترجم له غيرهم كالإمام نجم الدين الغزي، وابن العماد الحنبلي، والشوكاني والزركلي في آخرين.

(٦٨) عقود الدر والجوهر في نبذة من أسرار سورة الكوثر (ص: ٣١) - دراسة وتحقيق: د. طه محمد فارس، (١٤٤١هـ/٢٠١٩)، نشر قسم الكتب بشبكة الألوكة.

(٦٩) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٥٩٧ -٥٩٨).

(٧٠) الصواعق المرسلة (٢/٦٩٥).

ومن أجاد التحرير والجمع بين هذه الأقوال؛ الإمام الواحدي - رحمه الله - في تفسيره (البسيط) حيث قال: (وأصل ذلك كله من النحر الذي هو الصدر، ويقال لذبح البعير: النحر، لأن منحره في صدره... فمعنى النحر في هذا هو إصابة النحر، كما يقال رأسه وبطنه، إذا أصابه ذلك منه، ووضع اليد على الصدر نحرٌ أيضًا، كما ذكره علي - عليه السلام -، لأنه إصابة النحر باليد، ورفع الأيدي في الصلاة أيضًا عند التكبير نحرٌ، كما فسره جبريل - عليه السلام - للنبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو أن يرفع يديه إلى نحره، فتصيب يده نحره، وذلك القدر من الرفع هو السنة، واستقبال القبلة يسمى نحرًا، قال ابن الأعرابي: النحر انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب[٧١]، قال ثعلب: وهو أن ينتصب بنحره بإزاء القبلة، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا)[٧٢].

قال مقيده - عفا الله عنه -: وقد يُخرَّجُ على أقوال السلف الواردة عن العترة الطاهرة وغيرهم في استقبال القبلة بالنحر، أنَّ المراد بقوله تعالى ﴿وَٱنْحَرْ﴾ : استقبال نحور الأعداء لقتالهم، وهذا مأخوذٌ من قولهم: (وقف المجاهد في نحور الأعداء)، أي: قبالتهم وحذاءهم، وخُصَّ النحرُ بالذكر، لأن العدوَّ يُسْتَقْبَلُ بالنحر والصدر عند المناهضة للقتال، وقد جاء في الحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، والنسائي في سننه الكبرى، وابن حبان في صحيحه، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا، قَالَ: "اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ"[٧٣].

وروى الإمام مسلم في صحيحه في صفة صلاة الخوف: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: (شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى الله عَليه وسَلم صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَصَفَّنَا صَفَّيْنِ، صَفٌّ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ - صَلى الله عَليه وسَلم - وَالْعَدُوُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ...) إلى أن قال: (وَقَامَ الصَّفُّ الْمُؤَخَّرُ فِي **نُحُورِ الْعَدُوِّ**).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما كان يوم أحد، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -: "دونك نحر العدو فداك أبي وأمي"، فكان يضع سهمه في كبد

---

(٧١) تهذيب اللغة (١١/٥) مادة (نحر).

(٧٢) المرجع السابق (تهذيب اللغة)، وكلامه في: (مجالس ثعلب - ١/ ١١)، قال: (معنى قوله تعالى: فصل لربك وانحر، يقال: استقبل القبلة بنحرك، ويقال: اذبح).

(٧٣) النسائي في سننه الكبرى (٨٥٧٧) و(١٠٣٦٢)، وفي مسند أحمد (١٩٧١٩)، وصحيح ابن حبان (٤٧٦٥)، وقوله: "اللهم إنا نجعلك في نحورهم"، من قولهم: جعلت فلانا في نحر العدو، أي: قبالته وحذاءه ليقاتل عنك، ويحول بينك وبينه، وخص النحر بالذكر، لأن العدو به يستقبل عند المناهضة للقتال، والمعنى: نسألك أن تصد صدورهم، وتدفع شرورهم، وتكفينا أمورهم وتحول بيننا وبينهم. عون المعبود (ج ٣ / ص ٤٦٠).

قوسه فيقول: (اللهم سهمك في سبيلك، اللهم انصر رسولك)، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "اللهم استجب لسعد".

وروى الإمام الطبراني في معجمه الكبير بسند ضعيف عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمْ -: "إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ سِيَاحَةً، وَإِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةً، وَرَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الرِّبَاطُ فِي نُحُورِ الْعَدُوِّ"(٧٤).

قال الإمام المناوي - رحمه الله - في (فيض القدير): ("إن لكل أمة سياحة"، أي: ذهابًا في الأرض، وفراق وطن، "وإن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله"، أي: هو مطلوب منهم كما أن السياحة مطلوبة في دين النصرانية، فهو يعدلها في الثواب بل يزيد عليها، "وإن لكل أمة رهبانية"، أي: تبتلًا وانقطاعًا للعبادة، يقال ترهب الراهب، انقطع للعبادة، والراهب عابد النصارى، "ورهبانية أمتي الرباط في نحور العدو"، أي: ملازمة الثغور بقصد ملاقاة أعداء الدين، ومقابلتهم بالضرب على أعناقهم وصدورهم، والرباط كما في الصحاح وغيره: ملازمة ثغر العدو، والنحر موضع القلادة من الصدر، قال في المصباح: ويطلق النحور على الصدور، ويقال: ضرب نحره ونحورهم، ومنه نحر البعير، طعن في نحره).

إذن؛ فالأمر بالنحر يشمل ذلك كله، إلا أن أولى ما يُفهَمُ من سياق السورة هو حمل الأمر بالنحر على نحر الحيوانات من الأنعام وذبحها، وعلى نحر وقتال أعداء الله ورسوله، فالحيوان هو أرقى مملوكات الوجود، وهو فوق النبات والجماد في الرتبة الوجودية كما هو معلوم، والإبل أرقى أنواع الحيوان مما جاءت الشريعة باستحباب التقرب به لله، إذ إنه أكثر لحمًا، وأغلى ثمنًا، وقد ينتفع المائة من الناس بالشبع من أكل جَمَلٍ واحد، فلهذا ناسب ذكر الأمر بلفظ النحر لا بلفظ الذبح، لأن النحر يتناول الإبل في عرف اللسان العربي، غير أن رتبة الإنسان فوق كل صنوف الحيوانات، وهو أرقى ما في الوجود من الكائنات الحية لتكرمة الله له، فالجود بالنفس الإنسانية هو أقصى غاية الجود، ولهذا كان عزم الخليل إبراهيم على ذبح إسماعيل، ورضى إسماعيل بذبح أبيه له فداءً لله رب العالمين، هو غاية التضحية وقمة الفداء الكوثري في التقرب لله - جل جلاله -.

ولهذا فإن من المهم بالمرء أن يدرك المقصود النبيل من هذا الأصل التشريعي للأضحية، وهي أنها موضوعة للتذكير بالفدائية الإبراهيمية والتضحيات السخيَّة، وتربية أهل الإيمان على التضحية بالغالي

---

(٧٤) المعجم الكبير للطبراني: (١٦٨/٨، برقم ٧٧٠٨)، قال الحافظ العراقي: (سنده ضعيف)، وبينه تلميذه الهيثمي في (مجمع الزوائد :٢٧٨/٥) وقال: (فيه عفير بن معدان وهو ضعيف)، وقال الشيخ الألباني في (ضعيف الجامع: ١٩٢٤)، والضعيفة (٢٤٤٢): (ضعيف جدًا).

والنفيس مما تشح به الأنفس، ولئن كانت الإبل هي الغالي والنفيس من الأنعام، فإن إراقة دماء الأنعام يُقصد بها تربية النفس على إراقة دمائها لله رب العالمين، كما فعل الخليل إبراهيم وابنه الذبيح إسماعيل[٧٥] - عليهما السلام -، بل رويت تلك الفدائية أيضًا عن نوق الهدي التي ساقها النبي - عليه الصلاة والسلام - في حجة الوداع، فقد روي أنهُنَّ كُنَّ يزدحمْنَ على رسول الله لكي ينلن شرف النحر بيده الشريفة - عليه الصلاة والسلام -.

والمقصود أنَّ التضحية بالنفس هي غاية الجود والإنفاق من مشحوحات النفوس، وقد قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ آل عمران: ٩٢، وجاء في الحديث الحسن الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده وغيره، أن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال: "الْغَزْوُ غَزْوَانِ: فَأَمَّا مَنِ ابْتَغَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَأَطَاعَ الْإِمَامَ **وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ**، وَيَاسَرَ الشَّرِيكَ، وَاجْتَنَبَ الْفَسَادَ، فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنَبْهَهُ أَجْرٌ كُلُّهُ..."[٧٦]، وفي رواية الإمام مالك في موطأه قال: "الغَزْوُ غَزْوانِ، فَغَزْوٌ: **تُنفَقُ فيه الكريمةُ**، ويُيَاسَرُ فيه الشريك، ويُطَاعُ فيه ذو الأمرِ، ويُجْتَنَبُ فيه الفساد، فذلك الغزوُ خيرٌ كُلُّهُ..."[٧٧]، وقد فسر جمع من العلماء والشراح قوله: (**وأنفق الكريمة**) بإنفاق النفس والمال في الجهاد في سبيل الله، ومن هذا المعنى ذهب الشيخ العلامة عبد الحميد الفراهي في كتابه (نظام القرآن) إلى تفسير النحر بالفدائية الجهادية، وأن مقصود الآية التشجيع على الجود بالنفس لله، وإهراق الدم في سبيل الله، فقال - رحمه الله -: (وأما النحر فهو جماع معنى الإسلام، فإن الإسلام هو الطاعة، وإذعان النفس لربها، وتسليم كليتها لمولاها...قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ الصافات: ١٠٣، أي لما حقق بذلك كمال إسلامهما، أما الوالد فلأنه أسلم ما كان أحب إليه من نفسه، وأما الولد فلم يكن له إلا نفسه...فبين الله لنا بهذه القصة أن الإسلام أصله الطاعة، وتسليم أحب ما عنده للمولى حتى

---

(٧٥) قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في (زاد المعاد): (إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَجْرَى الْعَادَةَ الْبَشَرِيَّةَ أَنَّ بِكْرَ الْأَوْلَادِ أَحَبُّ إِلَى الْوَالِدَيْنِ مِمَّنْ بَعْدَهُ، وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ وَوَهَبَهُ لَهُ تَعَلَّقَتْ شُعْبَةٌ مِنْ قَلْبِهِ بِمَحَبَّتِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا، وَالْخُلَّةُ مَنْصِبٌ يَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْمَحْبُوبِ بِالْمَحَبَّةِ، وَأَنْ لَا يُشَارِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِيهَا، فَلَمَّا أَخَذَ الْوَلَدُ شُعْبَةً مِنْ قَلْبِ الْوَالِدِ جَاءَتْ غَيْرَةُ الْخُلَّةِ تَنْتَزِعُهَا مِنْ قَلْبِ الْخَلِيلِ، فَأَمَرَهُ بِذَبْحِ الْمَحْبُوبِ، فَلَمَّا أَقْدَمَ عَلَى ذَبْحِهِ وَكَانَتْ مَحَبَّةُ اللَّهِ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الْوَلَدِ خَلَصَتِ الْخُلَّةُ حِينَئِذٍ مِنْ شَوَائِبِ الْمُشَارَكَةِ، فَلَمْ يَبْقَ فِي الذَّبْحِ مَصْلَحَةٌ، إِذْ كَانَتِ الْمَصْلَحَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْعَزْمِ وَتَوْطِينِ النَّفْسِ عَلَيْهِ، فَقَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ فَنُسِخَ الْأَمْرُ وَفُدِيَ الذَّبِيحُ، وَصَدَّقَ الْخَلِيلُ الرُّؤْيَا، وَحَصَلَ مُرَادُ الرَّبِّ).

(٧٦) رواه أبو داود رقم (٢٥١٥) في الجهاد، باب من يغزو ويلتمس الدنيا، والنسائي (٦ / ٤٩) في الجهاد، باب فضل الصدقة في سبيل الله عز وجل، و(٧ / ١٥٥) في البيعة، باب التشديد في عصيان الإمام، والدارمي (٢ / ٢٠٨)، وأحمد (٥ / ٢٣٤)، وإسناده حسن، فقد صرح بقية بن الوليد بالتحديث عند أبي داود وأحمد، وكذلك في الرواية الثانية للنسائي.

(٧٧) رواه مالك في الموطأ (٢ / ٤٦٦) في الجهاد، باب الترغيب في الجهاد موقوفًا على معاذ، وهو في معنى رواية أبي داود والنسائي.

النفس...وأما النحر فحقيقته تسليم النفس لربها، كما دلت عليه قصة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وجعل التضحية تذكارا لتلك القصة والبلاء المبين الذي ابتلى به الرب خليله، والمؤمنون يحققون ذلك التسليم بإهراق مهجهم في سبيل الله، فكما أن الصلاة حياتنا بالرب، فكذلك النحر موتنا له، وذلك هو الدين والإسلام...فحقيقة النحر هي بذل النفس في سبيل الله)[٧٨].

ويستأنس لهذا الأصل بما جاء في خبر صفَةِ هذه الأُمَّةِ ورسولها في التَّورَاةِ، وفيه: "معه أقوام هم إلى الموت أسرع من الماء من رأس الجبل إلى أسفله، صدورهم أناجيلهم، قربانهم دماؤهم، ليوث النهار ورهبان الليل، يرعب منه عدوه بمسيرة شهر، يباشر القتال بنفسه حتّى يجرح ويكلم"[٧٩].

قال الإمام الخطابي في (غريب الحديث): (قَوله: قُربَانهُم دِمَاؤُهُم؛ يُرِيدُ أَنَّهُم أَهْلُ الجِهَاد وأَصحَاب المَلاحِم والقِتَال، وأَنَّهُم يَتَقَرَّبُون إلى رَبِّهِم بإراقَةِ دِمَائِهم، والقُربان مَصدَرٌ كالقُرْب يُقَالُ: قَرِبتُ الرَّجُل أُقَرِّبهُ قُرْبًا وقُرْبَانًا، وكان الرَّجُل من أَهْلِ الكِتَاب إذا رَفَعَ إلى اللَّه حَاجَة قَدَّمَ أَمَامَها نَسِيكَة، فَكَانَت تِلْكَ الذَّبِيحَة تُسَمَّى قُرْبَانًا إذ كان صَاحِبُها يَتَقَرَّبُ بِها إلى رَبِّهِ، فَذَكَرَ أَنَّ مِن صِفَةِ هَذِه الأُمَّةِ أَنَّهُم إنَّمَا يَتَقَرَّبُون إلى اللَّه بمُهَج أَنْفُسِهِم).

وقال ابن الأثير في (النهاية في غريب الحديث والأثر): (أَيْ يَتَقَرَّبون إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِرَاقَةِ دِمائهم في الجِهاد، وَكَانَ قُرْبانُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ذَبْح البَقَر وَالْغَنَم والإِبل).

وقال الزرقاني في (شرح المواهب اللدنية): (المراد أنهم متهيئون للجهاد في سبيل الله، فكأنهم يتقربون إلى الله بدماء أنفسهم، أو بدماء من قتلوه من الكفار؛ كما قال كعب بن زهير في مدح الأنصار:

يتقربون يرونه نسكا لهم *** بدماء من علقوا من الكفار)

إن تأويل مقصود الأمر بالنحر ببذل غاية ما يجود به المرء، هو الأنسب لاسم السورة ومقصودها وتفسير الكوثر، فإن (**الكوثر الموهوب**) هو غاية العطاء من الخالق، فيناسبه شكر المنعم ببذل (**الكوثر**

---

(٧٨) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ص: ٥٠٧) للشيخ العلامة عبد الحميد الفراهي، مطبعة الدار الحميدية بالهند، ٢٠٠٨م.

(٧٩) أصل هذا الأثر أن أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان قد سأل أبا مالك القرظي عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في التوراة، وكان أبو مالك القرظي من علماء اليهود، وقد ذكره وذكر خبره الواقدي، فقال: إنه قدم من اليمن وهو على دين اليهودية، فتزوج امرأة من قريظة، فانتسب فيهم وهو من كندة، وأنه قد أدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - فأسلم. وللفائدة يراجع: (أسد الغابة: ٦/ ٢٦٨)، وقد ذكر ابن حجر في (الإصابة: ٧/ ٣٥٧) طرفا من هذا الحديث في ترجمة أبي مالك من رواية الواقدي، ومدار هذا الأثر على الواقدي، وهو متروك مع سعة علمه، وعلى شيخه عثمان بن الضحاك، وهو ضعيف.

المطلوب)، وهو غاية العطاء الفدائي من المخلوق، لأن الأمر بالعبادة إذا رُبِطَ بالعطاء وفُرِّعَ عليه، كان امتثال الأمر من باب شكر النعمة الذي يوجب بقاءها ونموها، وإن من الفدائية الداخلة في عموم معنى النحر؛ ما ثبت عن سيدنا أبي طلحة الأنصاري - رضي الله عنه - حين كان يحرس النبي - صلى الله عليه وسلم - في يوم أحد، ويفديه بروحه وجسده فقال: (**نحري دون نحرك يا رسول الله**)[٨٠]، وفي رواية قال: (**يَا رَسولَ اللهِ نَفْسِي لِنَفْسِكَ الْفِدَاء**)[٨١].

ومن المفيد أن يشار هنا إلى أنَّ هذه السورة ونظائرها الثلاثة (الشرح - العاديات - النصر)، تدور كل واحدة منها حول هذه القضية الإيمانية، وهي: (**وجوب الفداء في مقابل العطاء**)، لكن الغالب أن يأتي الأمر بالفداء بقدر ما وُهِبَ العبد من العطاء، أما في سورة الكوثر فقد كان العطاء هو الغاية، فناسبه أن يأتي الأمر بالفداء الذي تَشِحُّ به أنفس العباد، فبذل الإبل والبقر والغنم للتضحية بها، ليس كبذل النفس والتضحية بها فداء لهذا الدين، وكذلك الجهاد باللسان ببذل العلم للناس، فإن فيه عطاء للغير مع بقائه واحتباس أصله، فالعالم يعطي من علمه مع احتباس وبقاء أصل هذا العلم بصدره، وأما بذل المال والأنعام كالإبل والبقر والغنم عند التضحية بها، وأكل أصحابها منها، والتصدق ببعضها على البائس الفقير، فإن فيه من بذل الأصل إعطاء النفس والغير منه، مع إمكان العِوَض، أما بذل النفس في الجهاد وإراقة مهجتها لله، ففيه العطاء الكوثري المحبوب، والفداء المطلوب من العبد لربه - مع أنه سبحانه غنيٌّ عن عطاء عبده - فلا أصل يبقى للعبد معه، ولا عوض عن النفس بعد قتلها في الدنيا إلا العوض في الجنة، بالعيش الأبدي والإنعام السرمدي، في قناديل معلقة تحت عرش الله - جل جلاله -، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ١٥٤، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٩، فهذا العطاء الكوثري من المخلوق هو الأنسب بالعطاء الكوثري من الخالق - جل جلاله -، ولا يمكن أن يُقدِمَ على هذا العطاء إلا من كان مشحونًا باليقين ومعتقدًا باتصاله بالمعطي الممد - سبحانه - الذي لا ينفد عطاؤه - جل جلاله -.

---

(٨٠) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٨١١)، في مناقب الأنصار: باب مناقب أبي طلحة رضي الله عنه، وبرقم (٤٠٦٤) في المغازي: باب {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}، ورواه مسلم في صحيحه برقم (١٨١١)، في الجهاد: باب غزوة النساء مع الرجال.

(٨١) رواه البزار في مسنده برقم (٦٦١١).

ويحسن هاهنا في ختام الكلام على آية النحر، أن أنوِّهَ بفذلكة ما سبق من مقاصد السورة وأسرارها، فأقول وبالله التوفيق: إن سورة الكوثر قد بنيت على أربعة أركان:

الأول: **المُعطِي** (المُنعِم): وهو الله - جل جلاله -.

والثاني: **المُعطَى** (المُنعَم عليه): وهو الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

والثالث: **العَطاء** (النعمة): وهو كثرة المدد الجهادي من الذراري والأتباع.

والرابع: **مقصود العطاء**: وهو بتر الأعداء.

وقد جاء التفريع لهذا العطاء بفاء التعقيب، المستعارة لمعنى التسبيب، فأفادت سببية أمرين:

١- **سببية ترك المبالاة**؛ أي: بسبب أننا أنعمنا عليك؛ فلا تبال بهم وبشماتتهم.
٢- **سببية الانشغال بالصلاة**؛ أي: بسبب أننا أنعمنا عليك؛ فانشغل بعبادة الصلاة.

ثم أتت هذه الفاء مصاحبة للطلب والأمر بأمرين اثنين:

أولهما: قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، وهو أمرٌ له صلةٌ متعلقةٌ بعطاء الكوثر وبالمُعطي (المُنعِم)، ومقصوده: تعزيز صِلَةِ المُنعَم عليه بالمُنعِم - جل جلاله -، بجَعْله على اتصال دائم بـ (المُنعِم) كي يستمر نمو (العطاء).

وثانيهما: قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، وهو أمرٌ له صلةٌ وتعلقٌ بعطاء البتر، ومقصوده: تعزيز قوة المُنعَم عليه ببتر وهزيمة أعدائه، فجعل نحر أعدائه وقتالهم، سبيلًا لبترهم وقطع دابرهم.

وكلا الأمرين مطلوب من (المُنعَم عليه)، ولهذا كان منه - عليه الصلاة والسلام - الجد في جهاد الكفار بفدائية محمديّة ترجمها - عليه الصلاة والسلام - بقوله: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ".

وقد قال الإمام الرازي في تفسيره ملخِّصًا معنى الآية: (الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفرًا وخصمك أبتر، فإنا أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر، أما الذكر الباقي والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: فاعبد لي، وَسَلِ الظفر بعد العبادة).

وينبغي التأكيد على أنَّ ما طُلِبَ من النبي - عليه الصلاة والسلام - فإنه مطلوب من أمته، إذ إن الكوثر وإن كان عطاءً خاصًا بالنبي - عليه الصلاة والسلام -، إلا أن خيره ونفعه يتعدى إلى أتباعه من أمته، سواء أكان الكوثر قرآنًا أو إسلامًا أو نهرًا في الجنة، وهكذا الأمر بالصلاة والنحر، فهما مطلوبان من أمته أيضًا سواءً بسواء، والله تعالى أعلم وأحكم.

إذن؛ فحاصل الآية أنها طلبت الجمع بين عبادتين جليلتين هما عمود الدين، وذروة سنامه المتين:

فالأولى: جنس عبادة الصلاة؛ بجميع أنواعها المفروضة والواجبة والنافلة، وعبادة الصلاة هي عمود الدين وأم العبادات البدنية اللازمة، التي تقوم على أصل الفداء بالوقت والقلب لله رب العالمين، وهي أفضل القربات إلى الله، وأعظم وسائل الزّلفى إليه، والولاء له، واللام في قوله تعالى: (لربك) لام الملكية، أي صل الصلاة لله وحده، واجعلها خالصة له سبحانه، لا يدخل عليها شيء من الغفلة، أو الاشتغال بغير الله.

والثانية: جنس عبادة النحر؛ بجميع أنواعها من نحر الإبل وذبح البقر والغنم ومأكولات الأنعام، ونحر وقتال أعداء الدين، وعبادة النحر هي أم العبادات البدنية والمالية المتعدية، التي تقوم على أصل الفداء بالنفس والمال والولد لله رب العالمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (وَالنَّحْرُ أَفْضَلُ مِن الصَّدَقَةِ، لِأَنَّهُ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْعِبَادَتَانِ الْبَدَنِيَّةُ وَالْمَالِيَّةُ، فَالذَّبْحُ عِبَادَةٌ بَدَنِيَّةٌ وَمَالِيَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ وَالْهَدِيَّةُ عِبَادَةٌ مَالِيَّةٌ)(٨٢).

وقد جاء الجمع بين الصلاة والجهاد غيرَ مرةٍ في نصوص الشارع الحكيم، كحديث أفضل الأعمال، وفيه أن سيدنا ابن مسعودٍ - رضي الله عنه - قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ ؟، قَالَ : "الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا"، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ ؟، قَالَ: "ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ"، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ: "الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ"، وكحديث: "رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ"، وكحديث مواساة المريض المسلم عند عيادته، وفيه: "اللهم اشف عبدك فلانًا ينكأ لك عدوًا، ويمشي لك إلى صلاة"، وجاء في خبر وصف التوراة لرجال هذه الأمة بأنهم أهل صلاة بالليل، وأهل فروسية بالنهار، ونص الخبر كما يلي: "يصلون لي قيامًا وقعودًا، ويقاتلون في سبيل الله صفوفًا وزحوفًا، ويخرجون من

(٨٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢٢/٢٤).

ديارهم ابتغاءَ مرضاتي ألوفًا، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل، ليوث بالنهار"، وفي رواية أخرى: "يصفُّونَ في صلاتهم كَصُفُوف الْمَلَائِكَة، ويصفون في القِتَال كصفوفهم في الصَّلاة".

ومن هنا نفهم عِلَّةَ حُبِّ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لعبادة الصلاة وحبه لعبادة الفداء، فقال في الصلاة: "وجعلت قرة عيني في الصلاة"، فصلَّى حتى تورمت قدماه، فقيل له: أوليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: "أفلا أكون عبدًا شكورًا"، وقال في الجهاد والفداء: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ".

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إلى أن الآية قد اشتملت على طلب الجمع بين أجلّ العبادات البدنية، وأجلِ العبادات المالية، فقال في (مجموع الفتاوي): (والمقصود أن الصلاة والنسك هما أجَلُّ ما يتَقربُ به إلى الله.. وأجل العبادات المالية النحر، وأجل العبادات البدنية الصلاة.. وَقَدْ امْتَثَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمْرَ رَبِّهِ فَكَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ لِرَبِّهِ، كَثِيرَ النَّحْرِ، حَتَّى نَحَرَ بِيَدِهِ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بَدَنَةً وَكَانَ يَنْحَرُ فِي الْأَعْيَادِ وَغَيْرِهَا)[٨٣].

وأما الإمام الرازي - رحمه الله - فقد ذهب إلى اشتمال الآية على مجموع الطاعات، فقال: (أمره حال حياته بمجموع الطاعات، لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب، أما طاعة البدن فأفضله شيئان، لأن طاعة البدن هي الصلاة، وطاعة المال هي الزكاة، وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتي بشيء إلا لأجل الله، واللام في قوله: {لِربك} يدل على هذه الحالة، ثم كأنه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن، فقدم طاعة البدن في الذكر، وهو قولهس: {فَصَلِّ} وأخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبيهاً على فساد مذهب أهل الإباحة في أن العبد قد يستغني بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه، فهذه اللام تدل على بطلان مذهب الإباحة، وعلى أنه لا بد من الإخلاص).

وهنا ينتهي الكلام عن تفسير الآية الثانية من سورة الكوثر، ويناسب أن يأتي بعد الأمر بالصلاة والنحر؛ الثمرة المرجوة منها، والنتيجة الناتجة عن الإتيان والعمل بهما..

---

(٨٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦- ٥٣٢).

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾

أي: **وأرق لله دماء ذبيحتك وعدوِّك، فعدوُّكَ ومبغضك - أيها النبي - هو المستحق للقطع عن خيري الدنيا والآخرة.**

قال مقيده - عفا الله عنه - : هذه الآية قد اختلف المفسرون في ارتباطها بما قبلها، فهل لها تعلُّقٌ بما سبقها، أم هي جملة اسئنافية بيانية لا علاقة لها بما قبلها؟

الصواب جواز الأمرين معًا، غير أن الشيخ النورستاني - تقبله الله - يرجح كونها متعلقةً بما قبلها على جهة التعليل للأمر بالنحر، والدليل على ذلك؛ أنها مُصْدَّرةٌ بـ (إِنَّ) في غيرِ مقامِ رَدِّ إنكارٍ ولا تَردُّدٍ، فيكون معنى (إنَّ) كالفاء العاطفة التي تُبَيِّنُ المعنى، والعلَّة، ووجه الفائدة مما جاء قبلها، فيصير معنى الآية أي: (**وانحر لله ذبيحتَكَ وَعَدُوَّكَ؛ فَعَدُوُّكَ هو المحكوم عليه بالقطع، المستحق للبتر**)، أو: (**وانحر لله ذبيحتك وعدوِّك، ولا تشغل بالك به، فعدوك هو المهزوم المبتور في آخر الأمر**).

قال الألوسي - رحمه الله - في (روح المعاني): (والجملة كالتعليل لما يفهمه الكلام، فكأنه قيل: إنا أعطيناك ما لا يدخل تحت الحصر من النعم، فصل وانحر خالصا لوجه ربك، ولا تكترث بقول الشانئ الكريه، فإنه هو الأبتر لا أنت).

إذن؛ فهذه الآية تُبَيِّنُ للنبي - صلى الله عليه وسلم - علَّة الأمر بالنحر، ووجه الفائدة منه، والمعنى المقصود به، وهذا كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ الحج: ١، أي: (اتقوا ربكم فزلزلة الساعة شيء عظيم)، وكقوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ لقمان: ١٧، أي: (واصبر على ما أصابك فذلك من عزم الأمور)، وكقوله: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ ﴾ هود: ٣٧، أي: (فهم مغرقون)، وقد جاء في الشعر العربي ما يفيد الاستغناء بذكر (إِنَّ) عن (الفاء)، فمنه قول بعض العرب:

فَغَنِّهَا وَهْيَ لَكَ الْفِدَاءُ *** إِنَّ غِنَاءَ الإِبِلِ الْحُدَاءُ

أي: فغناءُ الإبلِ الحُداءُ. وكقول بشَّار:

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ *** إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

أي: بَكِّرَا فالنَّجاحُ في التَّبْكِيرِ(٨٤).

والشَّنَآنُ في أصل اللغة: هو البُغْض، والشَّانِئُ: هو العدو المبغض، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المائدة: ٨، والشنآن نوعان:

١- **شنآن شخصه وذاته** - عليه الصلاة والسلام -.

٢- **وشنآن هديه وسنته** - عليه الصلاة والسلام -.

وأما البتر في اللغة فهو: الاستئصال والقطع، يقال : بترته، أبتره، بترًا، وبتر أي: صارَ أبتر، والأبتر في أصل اللغة: هو الحمار الذي لا ذنب له، ثم استعير لكل من لا عقب له، لا سيما من انقطع نسله بوفاة أولاده، وكذلك يُنْبَزُ به من انقطع الخير عنه.

وقد وصف الله تعالى الشانئ بالأبتر لا بالمبتور، لما في الخبر بصيغة (أفعل) التفضيل من المبالغة التي تفوق صيغة اسم المفعول، ولهذا قال الألوسي في (روح المعاني): (وفي التعبير بالأبتر دون المبتور على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يخفى من المبالغة).

---

(٨٤) ولهذا رُوِيَ أن خلف الأحمر قال لبشَّار: (لو قلتَ يا أبا مُعاذٍ مكانَ "إنَّ ذاك النجاحَ في التبكير"؛ "بَكِّرَا فالنَّجاحُ في التَّبْكِيرِ" كان أحسَنَ). فأَجابَهُ بشار بجَوَابٍ أَحَالَهُ فِيهِ عَلَى الذَّوْقِ فقال: (إنما بنَيْتُها أعرابية وَحْشيَّة - أي بَدَوِيَّةً - فقلتُ: إنَّ ذاكَ النجاح في التبكير، كما يقولُ الأعراب البدويون، ولو قلتُ: (بَكِّرا فالنجاحُ)، كانَ هذا من كلامِ المولَّدين، ولا يُشْبِهُ ذاكَ الكلامَ، ولا يَدْخُل في معنَى القصيدةِ)، قالَ: فقامَ خلَفُ الأحمر فقبَّلَ بَيْنَ عينيه).

قال الجرجاني في (دلائل الإعجاز) بعد ذكره لهذه القصة: (واعلمْ أنَّ مِنْ شأنِ "إنَّ" إذا جاءث على هذا الوجهِ - أَيْ أَنْ تَقَعَ إِثْرَ كَلَامٍ وَتَكُونُ لِمُجَرَّدِ الِاهْتِمَامِ -، أَن تُغْني غَناء "الفاءِ" العاطِفةِ – مثلًا -، وأنْ تُفيدَ من رَبْط الجملةِ بما قبلَها أمرًا عجيبًا، فأنتَ تَرى الكلامَ بها مستأنَفًا غير مستأنف، ومقطوعًا موصولاً معاً، أفلا تَرى أنك لو أَسْقَطْتَ "إنَّ" من قوله: "إنَّ ذاك النجاحَ في التبكيرِ"، لم تَرَ الكلاَمَ يلتئِمُ، ولرأيتَ الجملةَ الثانيةَ لا تتَّصل بالأولى، ولا تكونُ منها بسبيل، حتى تجيءَ بالفاءِ فتقولُ: "بَكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهجير، فذاك النجاح في التبكير" ومثله قوله بعضِ العرب:

فَغَنِّهَا وَهْيَ لَكَ الفِدَاءُ ... إنَّ غِنَاءَ الإِبِلِ الحُدَاءُ

فانظرْ إلى قولِه: "إنَّ غِناءَ الإبِلِ الحداءُ"، وإلى ملاءمَتِهِ الكلامَ قبلَه، وحسْنِ تشبثِهِ به، وإلى حُسْن تعطُّفِ الكلامِ الأول عليه، ثم انظر إذا تركت "إنَّ" فقلتَ: "فغنِّها وهيَ لك الفداءُ، غناءُ الإبلِ الحداءُ"، كيْفَ تكونُ الصورةُ؟، وكيْفَ يَنْبو أحَدُ الكلامَيْن عنِ الآخَرِ؟، وكيف يُشْئِمُ هذا ويعرق ذلك؟، حتى لا تَجِدَ حيلةً في ائتلافِهما حتى تَجْتَلِبَ لهما "الفاءَ" فتقول: "فغنِّها وهيَ لَكَ الفداءُ، فغناءُ الإبلِ الحُداءُ"، ثم تعلَّمْ أنْ ليستِ الأُلْفةُ بينهما مِنْ جنسِ ما كانَ، وأنْ قد ذَهبتِ الأنَسَة التي كنتَ تَجِدُ، والحسن الذي كنت ترى).

وقال أيضا: (وذلك أنه هَلْ شيءٌ أَبْيَنُ في الفائدةِ، وأَدلّ على أنْ ليس سواءً دخولُها وأنْ لا تدخل، أنكَ ترى الجملةَ إذا هيَ دخلَتْ تَرتبِطُ بما قبْلَها وتأتلفُ معه وتتَّحدُ به، حتى كأنَّ الكلامَيْنِ قد أُفرغا إفراغاً واحداً، وكأن أحدَهُما قد سُبِكَ في الآخَرِ؟، هذه هي الصورةُ، حتى إذا جئتَ إلى "إنَّ" فأسقطتَها، رأيتَ الثاني منهما قد نَبَا عن الأولِ، وتجافى معناه عن معناه، ورأيْتَه لا يَتَّصلُ به ولا يكونُ منه بسبيلٍ، حتى تجيءَ "بالفاءِ" فتقولُ: "بَكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهجيرِ، فذاكَ النجاحُ في التبكير"، و "غنِّها وهيَ لكَ الفداءُ، فغناءُ الإبلِ الحُداءُ"، ثم لا ترى "الفاء" تعيد الجملتين إلى ماكانتا عليه مِنَ الألفة، ولا تردُّ عليك الذي كنت تجد بـ "إنَّ" من المعنى).

ومقصود الآية عند الشيخ النورستاني: (التشجيع على بتر أعداء الرسول، والترهيب من شنآنه أو شنآن شيء من هديه وسننه)، ولهذا قال الشيخ عطية محمد سالم في تتمته لـ (أضواء البيان): (وَقَدْ جَاءَ مِصْدَاقُهَا بِالْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ: ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فَقَتَلَ صَنَادِيدَ قُرَيْشٍ، وَصَدَقَ الْوَعِيدَ فِيهِمْ، وَمِثْلُهُ عُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وَجَاءَ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ فَهِيَ فِي مَعْنَاهَا أَيْضًا)(٨٥).

والآية وإن كانت بصيغة الخبر، إلا أنها تضمَّنت معنى الإنشاء والطَّلب، أي: (فجاهد في سبيل الله لبتر أعدائك وقطع دابر شانئيك)، وقد أشار الشيخ النورستاني في هذا الموضع إلى لطيفة في الآية فقال: (إن بدء أول آية بالسورة بـ (إنَّ) المشددة، فيه إيماءٌ إلى شِدَّة غزارة هذا العطاء الكوثري، وإن بدء آخر آية بالسورة بـ (إنَّ) المشددة من بعد الأمر بالصلاة والنحر؛ فيه إيماءٌ إلى طلب شِدَّة النحر للشانئين حال قتالهم وجهادهم، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ الفتح: ٢٩).

وقد تقدم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في (صارمه المسلول) حين قرر وجوب الشِّدَّةِ والاستغراق في البتر لاستئصال الشانئين، حيث قال: (فيجب أن نبتر من أظهر شنآنه، وأبدى عداوته، وإذا كان ذلك واجبًا وَجَبَ قتله، وإن أظهر التوبة بعد القدرة، وإلا لما انبتر له شانئ بأيدينا في غالب الأمر... تحقيق ذلك: أنه سبحانه رتب الانبتار على شنآنه، والاسم المشتق المناسب إذا عُلِّقَ به حُكْمٌ، كان ذلك دليلًا على أن المشتق منه علةٌ لذلك الحكم، فيجب أن يكون شنآنه هو الموجب لانبتاره... والانبتار يقتضي وجوب قتله، بل يقتضي انقطاع العين والأثر، فلو جاز استحياؤه بعد إظهار الشنآن لكان في ذلك إبقاء لعينه وأثره... فإذا أظهروه - أي الشنآن - محقت أعيانهم وآثارهم تقديرا وتشريعا، فلو استُبقي من أظهر شنآنه بوجه ما؛ لم يكن مبتورا، إذ البتر يقتضي قطعه ومحقه من جميع الجوانب والجهات، فلو كان له وجه إلى البقاء لم يكن مبتورا...فإن هذا اللفظ يشعر بأن المقصود اصطلام صاحبه واستئصاله واجتياحه وقطع شنآنه...وهذا بين لمن تأمله والله أعلم)(٨٦). ا.هـ

وتقدم أيضًا ما صَحَّ من مرويات أسباب نزول السورة، وأنها نزلت بشأن سخرية كعب بن الأشرف بالنبي - عليه الصلاة والسلام -، فكان في السورة تعليم وإرشاد إلى طريقة التعامل مع أعدائه الشانئين

---

(٨٥) تتمة أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٥٧٤/٩)، (الجزء التاسع من الأضواء، والثاني من التتمة)، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٨٦) الصارم المسلول (ص: ٤٦٠).

وكيفية بترهم، ومن المعلوم في السيرة كيف كان نحر رأس كعب بن الأشرف وبتره على يد مفرزة من فداوية الأنصار الفالحة وجوههم - رضي الله عنهم وأرضاهم -، فهذا بتر أعيانهم.

وأما بتر ذراريهم فهو من أعجب ما تراه العينان وتسمع به الأذنان من أخبار السيرة النبوية، فإن هؤلاء الشانئين قد بتر النبي - عليه الصلاة والسلام - أولادهم عنهم، وسلب منهم ذراريهم في حياتهم أمام أعينهم؛ فانقطع انتفاعهم بنسلهم حقيقةً وحكمًا في الدنيا والآخرة، ثم جعل الله رسوله والدهم وأبوهم، وجعل زوجاته أمهاتٍ لجميع المؤمنين، وهذا لو تأملته لوجدته من أعجب البتر وألطفه وأدقه وأشده على النفس، فإن كفار قريش كانوا يعتزون بأولادهم وذراريهم، وبقاء ذكرهم وأنسابهم، وهم يشمتون بموت أبناء النبي - عليه الصلاة والسلام - ويفرحون لذلك، فإذا بمحمدٍ - عليه الصلاة والسلام - يسلبهم أولادهم، ويسحب منهم ذراريهم، فيسلم أولادهم وذراريهم له، ويدخلون في دين محمدٍ - عليه الصلاة والسلام - أمام أعين آبائهم وهم ينظرون، وهذا وقع لأولاد وذراري جميع من شمتوا يوما بالنبي - عليه الصلاة والسلام - وقالوا عنه (رجل أبتر)، كعقبة بن أبي معيط، والعاصي بن وائل، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأبو جهل وغيرهم، فما كان إلا أن أسلمت الذراري والأولاد، وكان منهم كثير ممن دخل تحت مسمى (المؤلفة قلوبهم) و(مسلمة الفتح)، ثم لا يذكر اليوم واحدٌ من هؤلاء الشانئين مع ابنٍ ولا ولدٍ من أبنائه، وكأن الوحي يقول لهم: هاهم أبناؤكم الذين من أصلابكم قد دخلوا في كوثر محمد رغم أنوفكم(٨٧).

ومما يحسن ذكره في هذا الباب، شهادة الصحابية الجليلة هند بنت عتبة - رضي الله عنها - زوج أبي سفيان - رضي الله عنه -، فقد عبَّرت بتعبيرٍ فائقٍ رائقٍ عن دقة هذا البتر لذراريها، كما في قصة بيعة النبي - صلى الله عليه وسلم - للنساء في مكة بعد الفتح الأعظم، فكان يبايعهن على ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الممتحنة: ١٢.

وكانت هند مُتَنَقِّبَةً مُتَنَكِّرَةً مع النساء خوفًا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعرفها، فلما قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: (أُبَايِعْكُنَّ على أن لا تُشْرِكْنَ بالله شيئا)، قامت هند ورفعت رأسها

(٨٧) قد برع جمعٌ من أهل العلم قديمًا في استخراج اعتزاليات كشاف الزمخشري بالمناقيش، ويحسن بأهل العصر أن يستخرجوا الخبث من التفاسير البِدعيَّة بالمناقيش أيضًا، ومن ذلك ما قاله بعضهم في تفسيره لـ (الأبتر) بأنه: (من ينسب إليه ولد ليس من صلبه)، ومقصوده - قبَّحه الله - أن من دخلوا في الإسلام من أبناء الشانئين، كأولاد العاصي بن وائل، وأولاد الوليد بن المغيرة، وأبناء أبي جهل، أنهم أبناء زنا.

وقالت: إنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال، ثم قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: (وَلَا يَسْرِقْنَ)، فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني أصبت من ماله هنات، فلا أدري أيحل لي أم لا)، : فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى أو بقي فهو لك حلال، فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعرفها، فقال لها: (وإنكِ لهندُ بنت عتبة؟) قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، ثم قال - عليه الصلاة والسلام -: (ولا يَزْنِينَ)، فقالت هند أوتزني الحرة؟، ثم قال - عليه الصلاة والسلام -: (وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ)، فقالت هند: (**ربيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا وأنتم وهم أعلم**)، فضحك عمر - رضي الله عنه - حتى استلقى، وكانت تقصد بذلك ابنها البكر حنظلة بن أبي سفيان الذي قتل مع المشركين في بدر، وابنها معاوية بن أبي سفيان الذي أسلم عام الفتح، فكان هذا منها شهادة على دقة البتر ولطفه[٨٨].

وحتى هم أنفسهم، فقد أمكن الله نبيه منهم، ومكنه من رقابهم، وجعل في يديه مصيرهم، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، فقتل من كفارهم من قتل، وبتر منهم طغاة تعلقوا بأستار الكعبة.

ومن عجائب هذا البتر؛ أن ترى في يوم بدر كيف كان الوالد في فسطاط الكفر، وابنه الذي من صلبه في فسطاط الإيمان بجوار محمد - عليه الصلاة والسلام -، كما وقع للصحابي البدري الجليل أبي حذيفة بن عتبة[٨٩] بن ربيعة - رضي الله عنه -، الذي اصطف مع رسولنا - عليه الصلاة والسلام - في صف المسلمين، وكان أبوه عتبة، وأخوه الوليد، وعمه شيبة، مُصْطَفِّيْنَ في صَفِّ المشركين، فلم تنطلق شرارة

---

(٨٨) قال الإمام ابن حجر - رحمه الله - في (الإصابة): (أخرجه ابن سعد بسند صحيح مرسلا عن الشعبي وميمون بن مهران).

(٨٩) هو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشيّ، قيل: اسمه مهشم، وقيل: هشيم، وقيل: هاشم، وقيل: قيس. كان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين، وصلّى القبلتين. قال ابن إسحاق: أسلم بعد ثلاثة وأربعين إنسانا، وثبت ذكره في (الصحيحين) في قصة سالم من طريق الزهري، عن عروة عن عائشة - رضي اللَّه عنها - أن أبا حذيفة بن عتبة كان ممن شهد بدرا، يكنى سالما، وقد ذكروا أنه استشهد يوم اليمامة، وهو ابن ست وخمسين سنة.

قال الإمام ابن عبد البر - رحمه الله – في (الاستيعاب): (كان من فضلاء الصحابة من المهاجرين الأولين، جمع اللَّه له الشرف والفضل، صلّى القبلتين، وهاجر الهجرتين جميعا، وكان إسلامه قبل دخول رسول اللَّه - صلّى اللَّه عليه وسلم - دار الأرقم للدعاء فيها إلى الإسلام. هاجر مع امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو إلى أرض الحبشة، وولدت له هناك محمد بن أبي حذيفة، ثم قام على رسول اللَّه - صلّى اللَّه عليه وسلم - وهو بمكة، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، وشهد بدرا، وأحدا، والخندق، والحديبيّة، والمشاهد كلها. وقتل يوم اليمامة شهيدا، وفيه تقول هند بنت عتبة حين دعا أباه إلى البراز يوم بدر:

فما شكرت أبا ربّاك من صغر *** حتى شببت شبابا غير محجون

الأحول الأثقل المشئوم طائرة *** أبو حذيفة شر الناس في الدين

ثم قال: (بل كان من خير الناس في الدين، وكانت هي- إذ قالت هذا الشعر- من شر الناس في الدين) (الاستيعاب: ٤/ ١٦٣١ - ١٦٣٢)، ترجمة رقم (٢٩١٤).

المعركة إلا وقد قتلوا جميعًا في المبارزة الأولى يوم بدر، ثم سحبت جثث قتلى المشركين لِتُرْمَى في القليب، وأبو حذيفة يرمق بعينيه جثة والده تجرجر إلى القليب مع عمه وشقيقه.

وصدق الإمام الرازي إذ يقول في تفسيره: (والله تعالى بَيَّنَ أن خصمه هو الذي يكون كذلك، فإنهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين، وصارت رايات الإسلام عالية، وأهل الشرق والغرب لها متواضعة)، إلى أن قال: (إن العدو وصف محمدًا - عليه الصلاة والسلام - بالقلة والذلة، ونفسه بالكثرة والدولة، فقلب الله الأمر عليه، وقال العزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فالكثرة والكوثر لمحمد - عليه السلام -، والأبترية والدناءة والذلة للعدو، فحصل بين أول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف).

إن هذه العلاقة الجهادية بين الكوثرية للأتباع المجاهدين والبترية للأعداء المشركين، هي سر السورة الكامن في ألفاظها، فإن الكفار لما وصفوا النبي - عليه الصلاة والسلام - بـ (الأبتر)، فإنهم أرادوا بذلك أن المدد الجهادي قد انقطع عنه، وأنه بموت أبنائه قد فَقَدَ أسباب البقاء والذكر والقوة، فليس ثمة أحدٌ من بعده يقوم له بنشر دعوته، وإعلاء دينه، ونُصرة منهجه، وتثبيت دعائم سلطانه في الأرض، فبين الله تعالى أن الموصوف بالانبتار هو ذلك العدو المبغض على سبيل الحصر فيه، ولهذا فإن الذي حدث ووقع من بعد ذلك؛ أنَّ نسل أولئك الكفرة قد انقطع انتفاعهم بهم في حياتهم وبعد مماتهم أيضًا، وأما المدد الجهادي والنسل المحمدي من ذراريه وأتباعه وأمته، فإنه لا زال يزداد كل يومٍ وينمو حتى يعم الأرض بأمر الله وقدره.

ولنأخذ جانبًا واحدًا من أدق وأصرح جوانب البتر المحمدي، وهو ما وقع للصحابي الجليل هشام بن أبي العاصي - رضي الله عنه -، فقد بتره النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أبيه فكرًا وعقيدةً وعملًا، ثم لم يكتف إلا ببتره عن كنية والده له، فكنَّاه: بـ (أبي مطيع) بدل كنية أبيه له بـ (أبي العاص)[٩٠].

وإن من عجائب ذلك البتر المحمدي؛ أن تجد أثر ذلك كله في ذراري وأولاد من كانوا يسخرون بنبينا - عليه الصلاة والسلام - وينبزونه بأنه (أبتر)، فإنهم قد دخلوا في مقصود سورة الكوثر أفواجًا لتحقيق الفدائية الجهادية ببتر دين آبائهم، ومناحرة الشانئين وقتالهم لنحرهم وبترهم، لا سيما الصحابي الجليل أبا مطيع هشام بن أبي العاصي - رضي الله عنه -، فقد روى الحاكم في مستدركه عَنْ أُمِّ بَكْرٍ بِنْتِ الْمِسْوَرِ

(٩٠) ذكر ذلك الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة) (٤٢٣/٦)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَتْ: (كَانَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ[٩١] رَجُلًا صَالِحًا، رَأَى يَوْمَ أَجْنَادِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْضَ النُّكُوصِ عَنْ عَدُوِّهِمْ، فَأَلْقَى الْمِغْفَرَ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْغَلْفَانَ لَا صَبْرَ لَهُمْ عَلَى السَّيْفِ فَاصْنَعُوا كَمَا أَصْنَعُ، قَالَ: **فَجَعَلَ يَدْخُلُ وَسْطَهُمْ فَيَقْتُلُ النَّفَرُ مِنْهُمْ، وَجَعَلَ يَتَقَدَّمُ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ** وَهُوَ يَصِيحُ: إِلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَيَّ أَنَا هِشَامُ بْنُ الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ أَمِنَ الْجَنَّةِ تَفِرُّونَ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

وعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ قَالَ: (لَمَّا انْهَزَمَتِ الرُّومُ يَوْمَ أَجْنَادِينَ؛ انْتَهَوْا إِلَى مَوْضِعٍ ضَيِّقٍ لَا يَعْبُرُهُ إِلَّا إِنْسَانٌ بَعْدَ إِنْسَانٍ، **فَجَعَلَ الرُّومُ تُقَاتِلُ عَلَيْهِ وَقَدْ تَقَدَّمُوهُ وَعَبَرُوهُ، فَتَقَدَّمَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ فَقَاتَلَهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى قُتِلَ**، وَذَلِكَ فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ).

ودونك في كتب السيرة أخبار الفدائية الجهادية للذراري المبتورة عن آبائهم كالصحابي الجليل عمرو بن العاصي[٩٢] بن وائل، وعكرمة بن أبي جهل[٩٣]، وسيف الله المسلول خالد بن الوليد[٩٤] بن المغيرة،

---

(٩١) هو هشام بن العاصي السهمي، الصحابي الصالح المجاهد، ابن أخت أبي جهل، وهي أم حرملة المخزومية، أسلم بمكة قديما، وهاجر إلى الحبشة، ثم رد إلى مكة إذ بلغه أن رسول اللَّه - صلّى اللَّه عليه وسلّم - قد هاجر ليلحق به، فحبسه قومه بمكة، ثم قدم بعد الخندق مهاجرا وشهد ما بعدها. كان من الذين لا يملكون أنفسهم ولا يصبرون عن الجهاد ولا عن مظان الموت في طاعة الله، وكان الموت في سبيل الله أحب إليه من الحياة، وهو من الثلاثة الذين آثروا غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فقد انطلق أبو الجهم بن حذيفة العدوي يوم اليرموك يطلب ابن عم له ومعه شيء فيه ماء، فإن كان به رمق سقاه ومسح بالماء على وجهه، فأتاه فقال له: أسقيك؟ فما كان به طرف يتكلم، فأشار أي نعم، فإذا صوت رجل يقول: أوّه، فأشار ابن عمه إليه أن انطلق إليه واسقه، فأتاه فإذا هو هشام بن العاصي بن وائل السهمي، فقال له: أسقيك؟ فسمع آخر يقول: أوّه وما بهشام طرف يتكلم، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجاءه فإذا هو قد مات، فرجع إلى هشام فإذا هو قد مات، ثم أتى ابن عمه فإذا هو قد مات.

(٩٢) هو عمرو بن العاصي بن وائل السهمي القرشي، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم، وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم، كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وهو الّذي أرسلته قريش رئيسا لوفد المشركين إلى الحبشة، وذلك لعدائه الشديد للمسلمين، وكفاءته العالية في المعاملات الخارجية. وبعد إسلامه فتح مصر، فكان إسلام مثل هذا السياسي القدير والفاتح العظيم من معجزات الإسلام، توفي بالقاهرة سنة ٤٣ هـ.

(٩٣) هو عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي القرشي، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، كان بعد إسلامه كان من أجلاء الصحابة، وكبار المجاهدين، والفاتحين، أسلم عام الفتح، استشهد مجاهدًا بأجنادين كما قال الجمهور، وقيل قتل يوم اليرموك؛ سنة خمس عشرة في خلافة عمر، وقيل: قتل يوم مرج الصُّفَّر، وذلك سنة ثلاث عشرة في خلافة أبي بكر. (الإصابة: ٢/٤٩٦).

(٩٤) هو الصحابي الجليل خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن كعب، سيف اللَّه تعالى، وفارس الإسلام، وليث المشاهد، والسيد الإمام، الأمير الكبير، قائد المجاهدين، أبو سليمان القرشي المخزومي المكيّ، وابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث. هاجر مسلما في صفر سنة ثمان، ثم سار غازيا، فشهد غزوة مؤتة، واستشهد أمراء رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وسلم الثلاثة: مولاه زيد، وابن عمه جعفر ذو الجناحين، وابن رواحة، وبقي الجيش بلا أمير فتأمر عليهم في الحال خالد، وأخذ الراية وحمل على العدو، فكان النصر. وسماه النبي - صلّى اللَّه عليه وسلم - سيف اللَّه، فقال: "إن خالد سيف سله الله على المشركين"، وشهد الفتح وحنينا، وتأمر في أيام النبي - صلّى اللَّه عليه وسلم -.

وغيرهم - رضي الله عنهم وأرضاهم -، فهذا ينبئك عن مدى إتقان البتر الذي أعطاه الله لنبينا الضَّحُوك القتَّال - عليه الصلاة والسلام -؛ فأحسن النبي بترهم عن آبائهم، تارة بالدعوة لتكثير المجاهدين، وتارة بالسيف لسحق الشانئين، حتى صيَّر النبي - عليه الصلاة والسلام - من أولادهم سيوفا لله مسلولة لبتر دين آبائهم، ومحق كفرهم، وكل ذلك من التحقيق الواقعي والتأويل الجهادي لسورة الكوثر عملًا وجهادًا، ومن تجليات السورة في الحياة الإيمانية الجهادية.

وإن من تجليات هذا البتر في تصاريف الجهاد في سبيل الله، ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن التجارب الجهادية في الأزمنة المتأخرة حيث قال: (وَمِنَ الْمَعْرُوفِ الْمَشْهُورِ الْمُجَرَّبِ عِنْدَ عَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ بِالشَّامِ، إِذَا حَاصَرُوا بَعْضَ حُصُونِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَنَّهُ يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِمْ فَتْحُ الْحِصْنِ، وَيَطُولُ الْحِصَارُ إِلَى أَنْ يَسُبَّ الْعَدُوُّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَحِينَئِذٍ يَسْتَبْشِرُ الْمُسْلِمُونَ بِفَتْحِ الْحِصْنِ، وَانْتِقَامِ اللَّهِ مِنَ الْعَدُوِّ فَإِنَّهُ يَكُونُ ذَلِكَ قَرِيبًا كَمَا قَدْ جَرَّبَهُ الْمُسْلِمُونَ غَيْرَ مَرَّةٍ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، وَلَمَّا مَزَّقَ كِسْرَى كِتَابَهُ مَزَّقَ اللَّهُ مُلْكَ الْأَكَاسِرَةِ كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَلَمَّا أَكْرَمَ هِرَقْلُ وَالْمُقَوْقِسُ كِتَابَهُ بَقِيَ لَهُمْ مُلْكُهُمْ)(٩٥).

وهنا ينبغي للمؤمن أن يقف مع نفسه وقفة خوفٍ ورهبةٍ وحذر، فليحذر المؤمن غاية الحذر أن يقع منه شنآن شيءٍ من هدي رسول الله وسنته - عليه الصلاة والسلام - وهو لا يشعر، فإن البتر الخفي على قدر الشنآن الخفي، وَعِلِّيَّةُ البتر لم تُعلَّق بكفرٍ ولا إسلام، وإنما عُلِّقَت بوجود الشنآن فحسب، لأن لفظ ﴿ شَانِئَكَ ﴾جاء بصيغة اسم جنس مضاف، فيفيد العموم في كل متصف بهذا الوصف، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ الحجرات: ٢، وبغضُ بعضِ الهدي قد يقع من المسلم عن غفلة أو زلَّة، فيُعاقب عليها بشيء من البتر عن خيرات الدنيا والآخرة جزاءً وفاقا، ولهذا حذَّر أئمة الإسلام من بغض أي شيء جاء في الشرع، **وما أحسن تعميم وتوسيع أبي العباس ابن تيمية - رحمه الله - لمعاني الشنآن والبتر، مقابل توسيعه لمعاني الكوثر**، حيث قال ناصحًا ومحذرًا: (فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَتَرَ شَانِئَ رَسُولِهِ

احتبس أدراعه ولأمته في سبيل الله، وحارب أهل الردة ومسيلمة الكذاب، وغزا العراق، واستظهر، ثم اخترق البرية السماوية، بحيث إنه قطع المفازة من حد العراق إلى أول الشام في خمس ليال في عسكر معه، وشهد حروب الشام، ولم يبق في جسده قيد شبر إلا وعليه طابع الشهداء، ومناقبه غزيرة، أمره الصديق على سائر أمراء الأجناد، حاصر دمشق فافتتحها هو وأبو عبيدة رضي الله عنهما. توفي رضي الله عنه بحمص سنة إحدى وعشرين. (تهذيب سير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠)، ترجمة رقم (٨٤).

(٩٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/٢٩٦).

مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، فَيَبْتُرُ ذِكْرَهُ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَيَخْسَرُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَيَبْتُرُ حَيَاتَهُ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا، وَلَا يَتَزَوَّدُ فِيهَا صَالِحًا لِمَعَادِهِ، وَيَبْتُرُ قَلْبَهُ فَلَا يَعِي الْخَيْرَ، وَلَا يُؤَهِّلُهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِيمَانِ بِرُسُلِهِ، وَيَبْتُرُ أَعْمَالَهُ فَلَا يَسْتَعْمِلُهُ فِي طَاعَةٍ، وَيَبْتُرُهُ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَا يَجِدُ لَهُ نَاصِرًا وَلَا عَوْنًا، وَيَبْتُرُهُ مِنْ جَمِيعِ الْقُرَبِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَلَا يَذُوقُ لَهَا طَعْمًا، وَلَا يَجِدُ لَهَا حَلَاوَةً، وَإِنْ بَاشَرَهَا بِظَاهِرِهِ فَقَلْبُهُ شَارِدٌ عَنْهَا، وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ شَنَأَ بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَدَّهُ لِأَجْلِ هَوَاهُ أَوْ مَتْبُوعِهِ أَوْ شَيْخِهِ أَوْ أَمِيرِهِ أَوْ كَبِيرِهِ، كَمَنْ شَنَأَ آيَاتِ الصِّفَاتِ، وَأَحَادِيثِ الصِّفَاتِ، وَتَأَوَّلَهَا عَلَى غَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْهَا، أَوْ حَمَلَهَا عَلَى مَا يُوَافِقُ مَذْهَبَهُ وَمَذْهَبَ طَائِفَتِهِ، أَوْ تَمَنَّى أَنْ لَا تَكُونَ آيَاتُ الصِّفَاتِ أُنْزِلَتْ، وَلَا أَحَادِيثُ الصِّفَاتِ قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ومن أَقْوَى عَلَامَاتِ شَنَاءَتِهِ لَهَا وَكَرَاهَتِهِ لَهَا أَنَّهُ إِذَا سَمِعَهَا حِينَ يَسْتَدِلُّ بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ اشْمَأَزَّ مِنْ ذَلِكَ، وَحَادَ وَنَفَرَ عَنْ ذَلِكَ، لِمَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْبُغْضِ لَهَا، وَالنُّفْرَةِ عَنْهَا، فَأَيُّ شَانِئٍ لِلرَّسُولِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ؟!، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاعِ الَّذِينَ يَرْقُصُونَ عَلَى سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَالْقَصَائِدِ وَالدُّفُوفِ وَالشَّبَّابَاتِ، إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ يُتْلَى وَيُقْرَأُ فِي مَجَالِسِهِمُ اسْتَطَالُوا ذَلِكَ وَاسْتَثْقَلُوهُ، فَأَيُّ شَنَآنٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ؟!، وَقِسْ عَلَى هَذَا سَائِرَ الطَّوَائِفِ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَكَذَا مِنْ آثَرَ كَلَامَ النَّاسِ وَعُلُومَهُمْ عَلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَلَوْلَا أَنَّهُ شَانِئٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَنْسَى الْقُرْآنَ بَعْدَ أَنْ حَفِظَهُ وَيَشْتَغِلَ بِقَوْلِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَلَكِنَّ أَعْظَمَ مَنْ شَنَأَهُ وَرَدَّهُ: مَنْ كَفَرَ بِهِ وَجَحَدَهُ وَجَعَلَهُ أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ وَسِحْرًا يُؤْثَرُ، فَهَذَا أَعْظَمُ وأطَمُّ انْبِتَارًا، وَكُلُّ مَنْ شَنَأَهُ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الِانْبِتَارِ عَلَى قَدْرِ شَنَاءَتِهِ لَهُ، فَهَؤُلَاءِ لَمَّا شَنَؤُوهُ وَعَادُوهُ جَازَاهُمُ اللَّهُ بِأَنْ جَعَلَ الْخَيْرَ كُلَّهُ مُعَادِيًا لَهُمْ، فَبَتَرَهُمْ مِنْهُ، وَخَصَّ نَبِيَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِضِدِّ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّهُ أَعْطَاهُ الْكَوْثَرَ؛ وَهُوَ مِنَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمِمَّا أَعْطَاهُ فِي الدُّنْيَا: الْهُدَى، وَالنَّصْرَ، وَالتَّأْيِيدَ، وَقُرَّةَ الْعَيْنِ، وَالنَّفْسِ، وَشَرْحَ الصَّدْرِ، وَتَنَعُّمَ قَلْبِهِ بِذِكْرِهِ وَحُبِّهِ، بِحَيْثُ لَا يُشْبِهُ نَعِيمَهُ نَعِيمٌ فِي الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ، وَأَعْطَاهُ فِي الْآخِرَةِ الْوَسِيلَةَ وَالْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ بَابُ الْجَنَّةِ، وَأَعْطَاهُ فِي الْآخِرَةِ لِوَاءَ الْحَمْدِ وَالْحَوْضَ الْعَظِيمَ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَجَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ أَوْلَادَهُ، وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ، وَهَذَا ضِدُّ حَالِ الْأَبْتَرِ الَّذِي يَشْنَؤُهُ وَيَشْنَأُ مَا جَاءَ بِهِ.

وَقَوْلُهُ {إِنَّ شَانِئَكَ}: أَيْ مُبْغِضُكَ، وَالْأَبْتَرُ الْمَقْطُوعُ النَّسْلِ، الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ خَيْرٌ وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ، فَلَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُ خَيْرٌ وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ، قِيلَ لِأَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ: إِنَّ بِالْمَسْجِدِ قَوْمًا يَجْلِسُونَ وَيُجْلَسُ إِلَيْهِمْ

فَقَالَ: مَنْ جَلَسَ لِلنَّاسِ جَلَسَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَمُوتُونَ وَيَحْيَى ذِكْرُهُمْ، وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ يَمُوتُونَ وَيَمُوتُ ذِكْرُهُمْ؛ لِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ أَحْيَوْا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَكَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}، وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ شَنَئُوا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَكَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ - أَيُّهَا الرَّجُلُ - مِنْ أَنْ تَكْرَهَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ تَرُدَّهُ لِأَجْلِ هَوَاك، أَوْ انْتِصَارًا لِمَذْهَبِك، أَوْ لِشَيْخِك، أَوْ لِأَجْلِ اشْتِغَالِك بِالشَّهَوَاتِ، أَوْ بِالدُّنْيَا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُوجِبْ عَلَى أَحَدٍ طَاعَةَ أَحَدٍ إلَّا طَاعَةَ رَسُولِهِ وَالْأَخْذَ بِمَا جَاءَ بِهِ، بِحَيْثُ لَوْ خَالَفَ الْعَبْدُ جَمِيعَ الْخَلْقِ وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ، مَا سَأَلَهُ اللَّهُ عَنْ مُخَالَفَةِ أَحَدٍ، فَإِنَّ مَنْ يُطِيعُ أَوْ يُطَاعُ إنَّمَا يُطَاعُ تَبَعًا لِلرَّسُولِ، وَإِلَّا لَوْ أَمَرَ بِخِلَافِ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ مَا أُطِيعَ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ، وَاسْمَعْ، وَأَطِعْ، وَاتَّبِعْ، وَلَا تَبْتَدِعْ؛ تَكُنْ أَبْتَرَ مَرْدُودًا عَلَيْك عَمَلُك، بَلْ لَا خَيْرَ فِي عَمَلٍ أَبْتَرَ مِن الاتِّبَاعِ، وَلَا خَيْرَ فِي عَامِلِهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ).

ولقد أشار السيد قطب - تقبله الله - في آخر تفسيره لهذه السورة من (ظلاله) إلى ملمح في غاية الحسن والجودة، فقال: (إن مقاييس الله غير مقاييس البشر، ولكن البشر ينخدعون ويغترون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور، وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد.. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد - صلى الله عليه وسلم - قولتهم اللئيمة، وينالون بها من قلوب الجماهير، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق؟، أين هم؟، وأين ذكراهم؟، وأين آثارهم إلى جوار الكوثر من كل شيء؟، ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه: الأبتر؟!، إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء، ولا أن يكون صاحبها أبتر، وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي الأزلي الخالد؟، إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور .. وصدق الله العظيم، وكذب الكائدون الماكرون).

إن هذا الملمح الحسن ينبغي أن يقف على أعتابه أهل الجهاد والإيمان في كل زمان ومكان، ذلك أنَّ مقاييس السماء في شأن الذكر والمدد والبقاء والقوة، هي الحقائق الصحيحة الحاكمة في الدنيا والآخرة، وأما مقاييس البشر والأرض فهي مجرد أوهامٍ حالمة، وسرابٍ بقيعة لا حكم له في القريب العاجل ولا في الأمد البعيد.

لقد ظنت قريش بمعاييرها الأرضية أنَّ المعيار الحقيقي للبقاء والقوة يكون بالولد والذرية، ولهذا قالوا: (من لا ولد له؛ لا بقاء له، ولا ذكر له)، ولهذا كانوا أشد الناس حرصًا على الإنجاب لبقاء دينهم وارتفاع

ذكرهم، وفي سورة (المسد) أيضًا ذكر الله معاييرهم المتهافتة، ورؤيتهم بأن المال والولد هما اللذان يتحكمان بمستقبل الحياة، ومصير الإنسان، فأراد الله - سبحانه وتعالى - من فوق سماواته السبع أن يعلم البشرية درسًا عن حقيقة هذه المعايير البشرية الأرضية، ليصرفنا من مقياس الخلق إلى مقياس الحق، ومن المعايير الجاهلية الأرضية إلى المعايير السماوية الحقيقية، وليقول لنا: إن هذه القواعد والمقاييس ليست هي المعايير الصحيحة الحاكمة لحياة البشرية ومستقبلها، فالواجب أن يسمو تفكيركم ووعيكم ليوافق الوعي الإسلامي الرشيد، والمعايير السماوية الصحيحة، لأنها معايير ليست مرتبطة بما كان راسخًا في أذهان أهل الأرض من أن بقاء الذكر والدين والقوة لا يكون إلا بإنجاب البنين، ولهذا أراد الحق سبحانه أن لا يُبقي ولدًا لحبيبه محمدٍ - عليه الصلاة والسلام - كي يهيء خلوص قلبه للتعلق به وحده، ولكي يدرك أهل الأرض حقيقة معايير السماء في بقاء الإنسان، وتمدد دعوته، وانتشار قوته، ولهذا حين مات أولاد النبي - عليه الصلاة والسلام - فرح أعداؤه ومبغضوه ظنًا منهم أن في ذلك انقطاع لذكر محمد - عليه الصلاة والسلام - وانقطاع لدينه ودعوته وقوته، فلن يلتفت إليه وإلى دينه أحد من الناس بعد ذلك، وكان من ظنهم أن محمدًا يريد ملكًا وراثيًا يورثه لأبنائه، لكن الله تعالى أوضح في هذه الآية الخالدة أن النسب الحقيقي المعترف به شرعيا في السماء عند الله؛ هو نسب المؤمنين بالدعوة وأتباعها، وأن هذا النسب الحقيقي والاعتراف الشرعي، لا يمكن لأحد في الأرض أن يحققه بذريته مهما حاول.

إذن؛ فلا ينبغي بعد ذلك أن تكون مقاييس أهل الحق ومعاييرهم أرضيَّة وضيعة، فلتسمو معايير أهل الحق لمعيار السماء، وليعلم أهل الحق أنَّ الحقَّ قد عالج هذه المعايير من قبلُ في قصة إبراهيم حين قال له: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٢٤، فردَّه الله من مقياس الأرض ومعاييرها الوراثية، إلى مقاييس السماء والمعايير الإلهية، لأن هدي السماء لا يورث بالنسب، وإنما يورث بالاقتداء والاتباع، فالذرية الحقيقية هي ذرية الإيمان والاتباع، وإتمام كلمات الله، والوفاء بهن، وكذلك عالجها الحق في قصة نوح بشكل أوضح حين قال نوح: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ هود: ٤٥، فقال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هود: ٤٦، فهذا تعديل سماوي لمقياس أرضي ومعيار بشري، وهذا التعقيب الذي عقَّب به الله في غاية الأهمية حين قال: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾، فإنه لم يقل: (إنه عَمِلَ عملًا غير صالح)، ولا قال: (إنه عاملٌ غير صالح)، لأن ذاته الكافرة غير ملحوظة بالأصل، وإنما الملحوظ

عمله بالأصالة، لأن الإنسان عبارة عن ذاتٍ وعمل، فالذات لها نسبها الأرضي، وأما العمل فهو النسب الحقيقي السماوي، ولهذا قد يكون الإبن ابنًا من جهة الذات، وأما من جهة العمل فليس بابنٍ ولا بولد للمرء.

إن هذه اللفتة البديعة من الشهيد السيد قطب - تقبله الله - تُعَدُّ دَرْسًا في غاية الأهمية لكل أهل الحق، فمن يزن الأمور والأحداث بالمقاييس الأرضية، والمعايير البشرية، فهو إنسانٌ خاضعٌ في منطقه وعقله وطريقة تفكيره لمنطق الجاهلية، والله تعالى يريد بهذه الآية الخالدة أن يقيم موازين أهل الحق، ويصرف معاييرهم من هذا المنطق الجاهلي، ليكسبهم مُنطلقًا فكريًا سماويًا غير الذي كان راسخا في الذهن الجاهلي، فبقاء الذكر يكون ببقاء الأتباع والمجاهدين، وثبات المخلصين لهذا الدين، ورحم الله شهيد الإسلام السيد قطب حين أكد كل ما مضى بقوله: (إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر، فهو ممتد الفروع، عميق الجذور، وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر، مهما ترعرع وَزَهَا وتجبَّر).

وهنا ينتهي كلامنا عن آخر آية من هذه السورة الكريمة، ونزدلف بعون الله وتوفيقه إلى هدايات السورة وفقهها، وما اشتملت عليه من الفوائد والفرائد، وبالله نتأيد.

مِن فِقْهِ السُّورَةِ وَهِدَايَاتِهَا

١- أعظم ما اشتملت عليه السورة من الفقه؛ أن بناء آياتها على الإيجاز، هو غاية ما فيها من التحدي والإعجاز، فالله - سبحانه وتعالى -كان قد تحدى بلغاء العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع الاستعانة بالجن والإنس إن أرادوا، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٨، وقال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ الطور: ٣٤، ثم أرخى لهم حبل التحدي فطالبهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ هود: ١٣، فلما عجزوا عن العشر، تنزَّل معهم غاية التنزل، فتحداهم أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مثله أو من مثله(٩٦)، على أن تكون كسورة الكوثر المكونة من عشر كلمات في ثلاث آيات قصيرات، لكنهم عجزوا وإلى اليوم أن يأتوا بمثلها أو من مثلها في إعجاز بلاغتها، وعظيم نظمها ودلالاتها، وفصاحة مفرداتها، فأقروا بعجزهم الدائم، وهم بالعجز عما هو أكثر من التنزيل أولى(٩٧)، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يونس: ٣٨، وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ٢٣، فكان عجز البشرية عن مجاراة أقصر سورة منه، نوع انبتار لقدراتهم البيانية والبلاغية والخطابية.

٢- من فقه السورة؛ اشتمالها على آداب العطية وإعطاء الهدية، ففيها استحباب التخلق بأخلاق الله بالبذل والعطاء للخلق، والجود والكرم عند إهداء الهدايا والهبات، وتشير قِصَرُ آيات السورة وقِلَّةُ عدد كلماتها

---

(٩٦) قال العلامة القرآني عبد الله دراز - رحمه الله - في كتابه (النبأ العظيم) (ص: ١١٣): (انظر كيف تنزَّل معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل، كأنه يقول: لا أكلفكم بالمماثلة العامة؛ بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها، ربما يكون مثلًا على التقريب لا التحديد، وهذا أقصى ما يمكن من التنزُّل، ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولًا، فلم يجئ التحدي بلفظ ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إلا في سورة البقرة المدنية، وسائر المراتب بلفظ ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة؛ فتأمل هذا الفرق فإنه طريف، وأسأل الله أن يوفقنا وإياك لفهم أسرار كتابه، والانتفاع بهدايته وآدابه).

(٩٧) يظهر - والله بالصواب أعلم - أن عدم مجيء التحدي بآية واحدة من القرآن، ليس لسهولة الإتيان بآية واحدة مثلها، وإنما لأن الإعجاز والتحدي يكون في اشتمال المتحدَّى به على غرضٍ محوريٍّ، ومقصودٍ كليٍّ، وهذا ما لا يتوفر إلا في سورة كاملة متكونة من ثلاث آيات فأكثر والله أعلم.

وجملها إلى استحباب إيجاز الكلام عند إهداء الهدية؛ تحرزًا من إدخال الحرج أو الوقوع في المن الخفي والأذى عند إطالة الكلام في وصف الهدية وقيمتها ونحو ذلك من خوارم المروءة والذوق وآداب التهادي.

٣- كانت السخرية والاستهزاء والإساءة من تجليات العداء والبغض للنبي - صلى الله عليه وسلم -، فلذلك قوبلت هذه الإساءات بنزول سورة الكوثر كما جاء في روايات أسباب النزول والآثار، فيستفاد منه اشتمال السورة على كيفية التعامل المطلوب حيال أحداث السخرية والإساءات وأشباهها.

٤- الإساءة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -كانت سببا في عطاء الكثير من الخيرات له ولأمته، وإذا كان التكلم في عرضه - عليه الصلاة والسلام - خيرًا للأمة وليس شرًا لها كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ النور: ١١، فكيف بالكلام فيه - عليه الصلاة والسلام -.

٥- من الفقه الأكبر المستنبط من السورة؛ إثبات صفة العظمة للمعطي والعظمة لعطائه، وهذا مستنبطٌ من مطلع السورة المفتتح بالإعلان الفخم المفيد لجلالة أمرين اثنين: جلالة المعطي - جل جلاله -، وجلالة عطائه وكرمه وجوده، ولهذا تكرر ضمير الجلالة والعظمة (نا) مرتين في أول كلمتين من مطلع السورة: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، فهو عطاءٌ عظيمٌ مِنْ مُعْطٍ عظيم.

٦- من الفقه الأكبر المستنبط من السورة؛ إثبات توحيد الربوبية بدلالة المطابقة، وإثبات توحيد الألوهية بدلالة اللزوم، وإثبات توحيد الأسماء والصفات بدلالة التضمن، وإثبات صفات الله الذاتية والفعلية على الوجه اللائق به - عز وجل -، ومنها صفات المالكية والكرم الفيَّاض، وصفات القدرة والإرادة له سبحانه.

٧- في التعبير بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، بدلًا من: (يا أيها النبي إنا أعطيناك الكوثر)، أو (إنا أعطينا الرسول الكوثر)؛ مع ما فيه من زيادة التشريف بصفة النبوة والرسالة، دليلٌ بأن هذا العطاء فضلٌ محضٌ، وإنعامٌ مجردٌ للرسول - عليه الصلاة والسلام - ولأمته وذريته وأتباعه، ولهذا لم يعلق العطاء بوصف النبوة والرسالة، كيلا يشعره بأن العطاء معلَّلٌ بذلك الوصف، كما وقع في قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ الأحزاب: ٥٠، ولكيلا ينخرم ما بنيت عليه السورة من حسن البيان والإيجاز، واحترازًا من تنافر النظم وهبوطه عن رتبة الإعجاز.

٨- في التعبير بنون الجمع وضمير التعظيم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ﴾؛ دِلالةٌ على أنَّ هذا العطاء يكون من الله تعالى، ومن ملائكة الله، وجنود الله أيضًا، فالعظماء حين يتحدثون عن أنفسهم، فلا يقصدون أشخاصهم فقط، بل يخبرون عمن تحت إمرتهم ممن يأتمر بأمرهم، كنايةً عن كمال قدرتهم وجلال عظمتهم، ولهذا قال ابن تيمية الحفيد - رحمه الله -: (تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى عَطِيَّةٍ كَثِيرَةٍ صَادِرَةٍ عَنْ مُعْطٍ كَبِيرٍ غَنِيٍّ وَاسِعٍ، وَأَنَّهُ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَجُنْدَهُ مَعَهُ).

٩- في سورة الكوثر جاء التعبير بلفظ الإعطاء لا بلفظ الإيتاء الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ الحجر: ٨٧، وإنما اختيرت كلمة ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾، لمناسبتها لكوثرية العطاء الدائم المفرط في الكثرة، من جهة صيغتها ومعانيها ومبانيها، فالمبالغة في صيغتها، والزيادة في حروفها ومبانيها؛ يدلان على الزيادة في حقائقها ومعانيها، فناسب أن يكون التعبير بالإعطاء أليق في هذا المقام من التعبير بالإيتاء.

١٠-في قوله تعالى: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ بصيغة الماضي؛ دليل على تحقق وقوع هذا العطاء في الماضي والحال والمستقبل، ففيه إثبات وجود الحوض ونهر الكوثر، وإثبات أنهما مخلوقان وموجودان الآن قبل الحاجة إليهما، كوجود الجنة والنار، وفيه الرد على من أنكر الحوض والنهر.

١١-من الفقه الأكبر المستنبط من السورة؛ وجوب محبة النبي - عليه الصلاة والسلام – فوق محبة النفس والأهل والولد، ووجوب إظهار هذا الحب والعمل به، وتعظيمه، وتبجيله، وإكرامه، وفدائه بكل ما نملك؛ فالله تعالى قد أكرمه في هذه السورة وأحبه غاية الحب والإكرام، وذلك بإقباله بالكلية عليه مِنْ أول السورةِ إلى آخرها، وتلطُّفه وحفاوته به، وتبجيله وتشريفه له، بذكره خمس مراتٍ إضمارًا، في ثلاث آياتٍ فقط، وبإضافة اسم الرب وضميره إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾، وتخصيصه بالخطاب المتضمن للبشارة والامتنان، والوعد والعطاء والرضا، كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾، ولأجل هذا المقصد الجليل؛ ذكر الله نفسه وعطاءه بنون التعظيم، ولم يقل الله له: (إني أعطيتك الكوثر) أو (إني معطيك الكوثر)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ آل عمران: ٥٥، وعليه؛ فكل ما في السورة من إطناب بتكرير كاف الخطاب، فالمقصود به زيادة تشريف الرسول بتكرار مخاطبته.

١٢-في التعبير بقوله: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾؛ دِلالة على خصوصية هذا العطاء بذات النبي - عليه الصلاة والسلام - وإن كان العطاء متعديا نفعه لأمته، ولهذا لم يأت ذكر النبي بضمير الجمع (أعطيناكم) مع إفادته للتبجيل والتعظيم للمخاطب، لأن في إفراد الضمير رفعٌ لإيهام الاشتراك مع النبي في خصوصية هذا العطاء، فكان ذلك من غاية التكريم، ونهاية التبجيل والتعظيم.

١٣-في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾؛ تنويهٌ بالسعة الشاملة والمفرطة لعطاء الله - جل جلاله -، حيث جاءت لفظة ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ معرَّفةً بلام التعريف، مع دلالتها في ذاتها على السعة والشمولية، فأفادت الاستغراق والتأكيد على الكثرة المفرطة، مع كمال السعة، وتمام الشمول من كل جهات العطاء وجوانبه.

١٤-في السورة الأمر بأم العبادات البدنية وأعلاها، وهي الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾.

١٥-في السورة الأمر بأم العبادات القلبية وأعلاها، وهي الإخلاص لله كما في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

١٦-في السورة الأمر بأم العبادات المالية والفدائية وأعلاها، وهي نحر الإبل للتصدق بلحمها، ونحر أعداء الرسول - عليه الصلاة والسلام - لكف شرهم كما في قوله تعالى:﴿وَٱنۡحَرۡ﴾.

١٧-في السورة الأمر بقتل الساخرين من النبي - عليه الصلاة والسلام - بنحرهم وبترهم كما في قوله تعالى: ﴿وَٱنۡحَرۡ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾.

١٨-في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾؛ الأمر بسؤال ودعاء الله النصر على الأعداء في الصلاة، كما قال الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي: (ادع ربك واسأله)[٩٨].

١٩-في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾؛ جاء الأمر مصاحبا لفاء التفريع والتعقيب، المستعارة لمعنى الفورية والتسبيب، ففيه التنبيه على وجوب المبادرة إلى شكر الله فورًا على آلائه ونعمائه، وفيه الأمر بترك التأسف على فوات شيء من متاع الدنيا وزينتها، وبترك المبالاة بالأعداء الشانئين، والإعراض عنهم، وعن شماتتهم، بالإقبال على طاعة الله، فكأنه يقول له: (إنا أعطيناك الكثير الأكثر من كل خير، فبسبب ذلك؛ أعرض عنهم ولا تبال بشماتتهم، ولا تتأسف على وفاة أبنائك، بل أقبل على الإخلاص لله بالصلاة والنحر، فإنني سأكفيكهم، وسأعوضك عما فاتك من أبنائك بمددٍ أكثر من أتباع دينك)، فكان ذلك نظيرَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝١٧٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ الصافات: ١٧٣ - ١٧٤.

٢٠-في التعبير بقوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ بدلًا من: (فلربك صلِّ)، مع ما في تقديم المجرور من إفادة التخصيص والحصر والتأكيد على الإخلاص كما في قوله تعالى:﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ المدثر: ٧؛ دلالةٌ على وجوب الإتيان بأعمال القلوب مع أعمال الجوارح، وأن عبادات الجوارح لا تغني عن عبادات القلوب، كما أن عبادات القلوب لا تغني عن عبادات الجوارح، فلابد إذن من التصديق مع التطبيق، ولقد سبرت أحوال أهل الجهاد المعاصر فلم أجد عونًا للمجاهد على ثباته واستقامته أعظم من أعمال القلوب.

٢١-في التعبير بقوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾، بدلا من: (فصل لخالقك) أو (فصل لمعطيك)؛ دلالة على وجوب تعظيم الله بربوبيته، وَطَمْأَنَةٌ باستمرار التنمية والرعاية المستقبلية لهذا العطاء الرباني، قيامًا بمقتضى هذه الربوبية، فلفظ الرب مشتملٌ على ما لا يحيط به الوصف من صنوف التربية والرعاية والتنمية.

٢٢-مع أن الربَّ ربٌّ لكل الناس والعالمين، إلا أنَّ التعبير جاء بإضافة لفظ الرب إلى ضمير الكاف العائد على الرسول - عليه الصلاة والسلام - في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾؛ ففيه دلالة على تشريف وتخصيص

(٩٨) ذكر ذلك عنه الإمام مكي بن أبي طالب القيرواني الأندلسي في كتابه (الهداية إلى بلوغ النهاية: ١٢/ ٨٤٧٠)، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ورواها أيضا ابن جرير في تفسيره (٦٥٥/٢٤) عند قوله: (وقال آخرون: بل معنى ذلك: فصل وادع ربك وسله).

النبي بالعطاء، وعناية الله الخاصة بنبيه، وبالعطاء الموهوب له، وفيه إشارة إلى أنه سيكون معه ناصرًا ومؤيدًا له ولدعوته وحركته الرسالية، وقد جاء التعبير بإضافة الرب إلى ضمير النبي أكثر من مائتي مرة في القرآن، كما جاءت إضافة أعضائه وجوارحه إليه مرات عديدة في القرآن، كقوله: ﴿وَجۡهِكَ﴾، ﴿لِسَانِكَ﴾، ﴿عَيۡنَيۡكَ﴾، ﴿عُنُقِكَ﴾، ﴿يَدَكَ﴾، ﴿صَدۡرَكَ﴾، ﴿ظَهۡرَكَ﴾.

٢٣-في قوله تعالى: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾؛ استدلال بربوبية الله على استحقاقه للألوهية والعبادة، وفيه أيضًا دلالة عظيمة أخرى على وجوب الإخلاص وتوحيد الله وإفراده بالعبادة، لأن الله - سبحانه وتعالى - قد صرف الكلام من خطاب التكلم إلى خطاب الغَيبة؛ ولهذا لم يقل: (إنا أعطيناك الكوثر فصل **لنا** وانحر)، فعدل عن ضمير الجمع للمتكلِّم المفيد للتعظيم (إنا أعطينا)، إلى الاسم الظاهر المفرد (رب)، فأقام المظهر موضعَ المضمر؛ لإظهار كبريائه، وتربية المهابة في قلوب عباده، وكيلا يخطر بالفؤاد أن الصلاة تكون لله ولجنوده في السماء، وهذا العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف لسابقه، يسمونه: (التفاتًا بيانيًا)، ويُعَدُّ عندهم من أعلى وأكمل أمهات الفصاحة العالية، وفائدته في هذا الموضع: الأمر المؤكد بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ووجوب إفراد الله بالعبادة، وفيه رفع لوجوه الهيبة والعظمة إلى أقصاها، فوق ما يفيده ضمير الحق العظيم (إنا) من العظمة والهيبة.

٢٤-في قوله تعالى: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾؛ إشارة إلى عادة من أجلِّ وأهمِّ (عادات القرآن)[٩٩]؛ فمن عادات التنزيل أن يأتي اسم الله بالإفراد واحدًا أحدًا، مُظهرًا أو مُضمرًا، عند الحديث عن ذاته وألوهيته واستحقاقه للعبادة، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ طه: ١٤، ولا يأتي اسم الله في آيات الذات والألوهية بضمير الجمع ونون المتكلم (إنَّا نحن)، التي يسمونها بنون التعظيم والكبرياء، وإنما تأتي ضمائر الجمع هذه في أفعال الله الدَّالة على صفاته وربوبيته، كإعطاء الكوثر كما في أول هذه السورة، وإنزال القرآن في ليلة القدر ونحو ذلك كقوله: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر: ٩.

٢٥-في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾؛ تعريضٌ بدين المشركين الشانئين لرسول العالمين، فقد كانوا يصلون ويذبحون لآلهتهم وأصنامهم، وعند قبور أمواتهم، ويذكرون عند الذبح أسماء أصنامهم، فإذا كانت صلاتهم وقرابينهم

(٩٩) المراد بمصطلح (عادات القرآن): ما تكرر في القرآن من الأساليب الكلية، على طريقة أغلبية، لأجل دلالة خاصة، وهذا المصطلح مذكورٌ في مصنفات الأئمة كالرازي والبيضاوي وابن تيمية وابن القيم وابن حجر والزركشي والسيوطي والبقاعي وغيرهم، وقد أكثر من استعماله الشيخ ابن عاشور في (تحريره وتنويره)، حيث أكد على أهمية رصده ودراسته وتعلمه، وضرورة عناية المفسر به، بل جعله بحثًا مستقلًا في المقدمة العاشرة من مقدمات تفسيره، وتكمن أهميته في كونه دليلًا استقرائيًا وحَكَمًا في الترجيح بين الأوجه والمعاني عند المفسرين، ومن أفضل ما أفردوه في هذا الباب؛ رسالة جامعية فريدة، مطبوعة في مجلدين بعنوان: (عادات القرآن الأسلوبية: دراسة تطبيقية)، من تأليف الدكتور راشد بن حمود الثنيان.

وعباداتهم لغير الله تعالى، فلتكن كُلُّ عباداتك - أيها الرسول - بخلاف عبادات المشركين، فخالفها ولو بنية القلب؛ وذلك بإخلاصها لله وحده لا شريك له، لتثبت الأقدام على الصراط المستقيم، وعلى إخلاص العبادة لوجهه الكريم.

٢٦-في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾؛ دليل على أن الإخلاص من شروط صحة الصلاة والنحر.

٢٧-في قوله تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ دليل بأن الذبح لغير الله شرك أكبر، لأن الذبح عبادةٌ مأمورٌ بها للرب فقط.

٢٨-في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾؛ إشارة إلى أن ثمن الفداء المطلوب يكون بإزاء قيمة العطاء الموهوب.

٢٩-في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾؛ إشارة إلى أهم صفات الفدائي في سبيل الله؛ وهي محافظته على الصلاة، وصيانته لتوحيده وإخلاصه لله، ومواظبته على إراقة الدماء المباحة، وإزهاق الأرواح المستباحة.

٣٠-في البدء بالأمر بعبادة الصلاة قبل عبادة النحر؛ دلالة على أن الصلاة مفتاح الخيرات والعطاءات الدينية والدنيوية والأخروية، فهي وسيلة التواصل بين العبد وربه، وهي الناهية العاصمة من الفحشاء والمنكر، وقد قيل: (من كان في عمل الله، كان الله في عمله)، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ طه: ١٣٢.

٣١-استدل بعض الفقهاء بتقديم الأمر بالصلاة على الأمر بالنحر، على وجوب صلاة العيد، ووجوب نحر الأضحية من بعدها، وعلى تقديم حق الخالق المحض على حق المخلوق، كتقديم صلاة العيد على نحر الأضاحي، وقد اختلفوا في هذه المسألة، والصواب أنَّ الواو لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا، وإنما هي لمطلق الجمع، والترتيب مأخوذٌ من السنة لا من الكتاب، كما جاء في صحيح البخاري ومسلم عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قال: سمعت رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: "إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا"، قال ابن تيمية الحفيد - رحمه الله -: (وَلَمَّا قَدَّمَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى النَّحْرِ فِي قَوْلِهِ:﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، وَقَدَّمَ التَّزَكِّي عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ الأعلى: ١٤ - ١٥، كَانَتْ السُّنَّةُ أَنَّ الصَّدَقَةَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فِي عِيدِ الْفِطْرِ، وَأَنَّ الذَّبْحَ بَعْدَ الصَّلَاةِ فِي عِيدِ النَّحْرِ)، وهذا مذهب سادتنا من فقهاء الحنفية والحنابلة، وهو ما اختاره الطحاوي والشوكاني وابن عثيمين - رحمة الله على الجميع -، وأمر النحر على الراجح معلقٌ بانتهاء صلاة عيد الأضحى لا بانتهاء خطبة العيد، ولا بانتهاء صلاة الفجر من باب أولى.

٣٢-في التعبير بقوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ بدلا من: (واذبح)؛ دِلالةٌ على طلب الكرم والجود في الإنفاق، لأن لفظ النحر يطلق في الحقيقة على الإبل خاصة، وهي أخير وأكرم الأنعام المأكولة وأجودها، وفي الإتيان بلفظ النحر إشارة إلى وجوب علاج داء البخل والشح بالمال والنفس والولد، ووجوب قمع مرض حب الدنيا ولذائذها، والقضاء على شهوة الأنانية التي تولد مع الإنسان ملتصقةً ولازبةً بطبعه، وقد اختلف سادتنا الفقهاء في أفضل ما يتم به التضحية في عيد الأضحى، فذهب الجمهور من الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أفضليَّة التضحية بالبدنة ثم البقرة ثم الشاة، وذهب المالكية إلى تفضيل عكس ذلك الترتيب، واستدلوا بالسنة القولية والفعلية في الأضحى، وبأن إبراهيم الخليل - عليه السلام - قد فُدِيَ من الذبح بكبش عظيم.

٣٣-في قوله تعالى:﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾؛ أمرٌ بشكر الله كما قال عكرمة، وتعليمٌ لطريقة أداء الشكر، وبيان أفضل وأكمل أنواع الشكر، مع بيان من يستحق هذا الشكر، وأن الفداء والتضحية بالنفس، والتقرب لله ببذل الروح له قربانًا؛ من أعلى مراتب شكر الله.

٣٤-في قوله:﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾؛ دليل على أن الشكر يكون بقول اللسان، وباعتقاد الجنان، وبعمل الجوارح والأركان، وخير الشكر ما كان جامعا لأنواعه الثلاثة من العبادات كالصلاة، وعادة التنزيل أن يأتي الشكر مربوطا بالعبادة كما في قوله تعالى:﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ الإسراء: ٣، وقوله تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ النحل: ١١٤.

٣٥-في قوله تعالى:﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾؛ وجوب شكر نِعَمِ الله بعبادة الله، ومقابلة عطائه بطاعته، وفيه أيضًا أن الصلاة والنحر والإنفاق والجهاد من أسباب إعطاء الكوثر ابتداءً، وأسباب تمنيته وديمومته انتهاءً، ولهذا قال ابن تيمية الحفيد - رحمه الله -: (كَأَنَّهُ يَقُولُ:﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخَيْرَ الكَثِيرَ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْك بِذَلِكَ؛ لِأَجْلِ قِيَامِك لَنَا بِهَاتَيْنِ الْعِبَادَتَيْنِ شُكْرًا لِإِنْعَامِنَا عَلَيْك، وَهُمَا السَّبَبُ لِإِنْعَامِنَا عَلَيْك بِذَلِكَ، فَقُمْ لَنَا بِهِمَا، فَإِنَّ الصَّلَاةَ وَالنَّحْرَ مَحْفُوفَانِ بِإِنْعَامِ قَبْلِهِمَا وَإِنْعَامٍ بَعْدِهِمَا).

٣٦-من فقه السورة؛ اشتمالها على أعظم الأخبار العلمية في أول آياتها، وأعظم الأحكام العملية في ثاني آياتها، وأعظم العقوبات الشرعية في ثالث آياتها.

٣٧-من فوائد السورة؛ اشتمالها على ذكر الله - تعالى - ثلاث مرات؛ مرةً واحدةً إظهارًا، ومرتين إضمارًا.

٣٨-من فوائد السورة؛ أنها من أولها لآخرها قد خاطبت شخصَ رسول الله - عليه الصلاة والسلام - خمس مرات بالإضمار، في ثلاث آيات فحسب، ويبدو - والعلم عند الله - أن فيه إشارة إلى أسماء الرسول - عليه الصلاة والسلام - الخمسة الثابتة عنه في الصحاح، وهي: (محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب).

٣٩-في الإخبار بقوله:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ عدولٌ عن ذكر اسم المبغض الشانئ إلى ذكر صفته، وذلك لحقارة شخصه، وعدم المبالاة به، وطرحا لرفع شأنه بذكره، وفي ذكر وصفه بيانٌ لسبب بغضه، ووضاعة حالته ونفسيته، وأنها نفس ممتلئة بالحقد والغيظ والحسد، وأن هذا الحقد هو الباعث الأساس لسخريته وشماتته. وإن من فقه الإتيان بوصفه دون اسمه؛ تعميم حكم البتر على جميع المتصفين بهذا الوصف، ليتناول كل من كان في مثل حاله، سواء ممن ذكروا في أسباب النزول، أو غيرهم ممن كانوا بعدهم، وممن سيكونون في مستقبل الزمان إلى يوم القيامة.

٤٠-في التعبير بقوله تعالى:﴿شَانِئَكَ﴾ بدلا من: (إنَّ مَنْ شَانَكَ) أو (إنَّ مَنْ يَشْنَؤُكَ)؛ إشارة وإفادة بأن حكم البتر للشانئ سيعم كل الأزمان في الماضي، والحاضر، والمستقبل، لأن (شانئ) اسم فاعل، فهو حقيقة في الحال، ومجاز في الماضي والاستقبال، فيفيد الاستمرارية ودوام نزول هذه السنن الإلهية بالشانئين إلى يوم القيامة، ويفيد أيضًا أن حكم البتر يدور مع وجود عِلَّتِهِ، فهو مُختَصٌّ بمن استمر على بغضه وشنآنه، لا بمن أسلم وانقلب بغضه إلى حب عظيم له - عليه الصلاة والسلام -، قال الإمام الألوسي - رحمه الله - في (روح المعاني): (الحكم على المشتق يفيد عِلِّيَّةَ مأخذه، فيفيد الكلام أن الأبترية مُعَلَّلَةٌ بالبغض، فتدور معه، وقد زال في أولئك الأكابر - رضي الله تعالى عنهم -).

٤١-في التعبير بقوله:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ بدلا من: (إنَّ شانئك أبتر) أو (إنَّ شانئك سأبتره وأعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين)، وفي المجيء بضمير الفصل (هو) الدال على قوة الإسناد والاختصاص؛ دلالةٌ على تأكيد وتعيين وتشخيص وتخصيص وقصر صفة البتر بالموصوف بالشنآن لا بغيره.

٤٢-في مجيء الخبر ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ على صيغة أفعل التفضيل، ثم حذف مفعوله؛ دلالةٌ على وجوب التفنن والتنوُّعِ في بتر الأعداء، وأن السخرية بجناب النبي - عليه الصلاة والسلام - وبالرموز والمقدسات الإسلامية تستوجب كمال بترهم، وشدة استئصالهم، كما تستوجب إنزال عذاب الله بهم بأيدي جنوده المؤمنين في الدنيا، وشدة عذابهم في الآخرة.

٤٣-وفي سبب نزول قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ إشارة إلى أن من سمات العقل الجاهلي؛ التسرع في الأحكام، والتحليل والبناء على الإحصائيات المادية والحسابات الأرضية فقط، فقد كانوا يعولون على تعداد الأبناء، واستمرار بقائهم على دين الآباء، فانقلبت عليهم كل استشرافاتهم، وتوقعاتهم، وتحليلاتهم المستقبلية بما لم يكن في حسبانهم.

٤٤-من فقه السورة في قوله تعالى:﴿وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ الإشارة أن شِدَّةَ العداوات وكثرة العطاءات، تستلزم من العبد سخاءَ التضحيات.

٤٥-من فقه السورة في قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ اشتمالها على آداب الذم المباح؛ ففيها استحباب الإعراض عن الساخر والشاتم ليتولى الله الدفاع عن عبده، واستحباب التخلق بأخلاق الله في اختيار الرد والذم المناسب، كرعاية أدب المنطق، ونزاهة الهجاء، وفي الآية دليل على أن الهجاء المباح ما روعي فيه الذوق الإسلامي، والجواز الشرعي، وكان نزيهًا من الفحش، فينبغي على المؤمن أن يبتغي عند ذمه لمستحقه سبيلًا وسطًا بين الإفراط والتفريط، وفيه أيضًا جواز رد الذم بمثله شريطة مطابقته للواقع، لقوله تعالى:﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ النساء: ١٤٨، وقوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ الشورى: ٣٩ - ٤٣، وقد وصف الله الشانئ بالأبتر، وهو في بادي الرأي تفريطٌ في الوصف في جنب ما يستأهله الشانئ للرسول من الذم والهجاء، لكنه أدب الرحمن، وخُلُقُ القرآن، ومقتضى الإيمان.

٤٦-في قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ دليل على أن الكفر والردة تكون أيضًا بعمل القلب، لأن البغض عملٌ قلبي، وهو نقيض الحب لله ورسوله، وعليه فإن بغضه - عليه الصلاة والسلام - من أعمال النفاق الأكبر المخرج من الملة، وهو من سمات طغاة الكافرين المعاندين.

٤٧-في قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ دليل على أن الفكر لا يبارز بالفكر وطاولة الحوار فقط كما يزعم المنهزمون، وإنما يعالج بالفكر والبيان، واللسان والسنان، والوعيد والبتر، والتهديد والنحر.

٤٨-من فقه السياسة الشرعية المستنبط من قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ وجوب قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية بكل أنواعها وأشكالها مع الدول الحربية الراعية للمسيئين لرسول العالمين، كفرنسا والسويد والدنمارك وأمريكا وغيرها من الدول الصليبية.

٤٩-في قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ وعدٌ ضمني بانتصار الدين المحمدي وهزيمة أعدائه، وهو دليل على ولاية الله للمجاهدين، فإن من نصر دين الله فإن الله ينصره ويدافع عنه، ولهذا حينما جاهد رسول الله في سبيل الله، وانشغل بنصر دين الله والذب عنه، واقتحم لأجل الجهاد موارد الموت لإعزاز الإيمان، وإظهار كلمة الإسلام، ذب الله عنه، فتولى بنفسه الرد على شانئيه، وبترهم ومحق آثارهم.

٥٠-في قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ دليل على حسن خلق رسولنا - عليه الصلاة والسلام -، حيث لم يبادر إلى رد الشتم بالشتم، ففيه استحباب الصبر الجميل، عملًا بقوله تعالى:﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ الحجر: ٩٤ – ٩٩.

٥١-في قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾؛ مشروعية احتقار الظالمين، لأن الشانئ هو الشخص الثالث المذكور في السورة بعد (المتكلم) الله - عز وجل -، ورسوله (المخاطب) - عليه الصلاة والسلام -، وجاء ذكر الشانئ متأخرًا بضمير الغائب ﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ على سبيل الاحتقار لشأنه، مع كونه سيدًا في قومه؛ فصار نكرةً لا حضور ولا فاعلية له في الأحداث، وإنما يُقضى عليه حين غيابه، فوجوده مرهونٌ بحضور دور المتكلم و تفاعل المخاطب فحسب، وهذا الضعف والغياب للشخص الثالث ليس محصورًا في جانب النص فقط، بل يتعدى ويمتد إلى حياته ببتره بعد بتر كل أسباب قوته، وسيمتد هذا الأثر في الآخرة أيضًا ببتر طريقه من انتفاعه بولده وصالح أعماله عن دخول الجنة.

٥٢-في قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾؛ مشروعية الدعاء على الظالم كما قال الشيخ المفسر أبو بكر الجزائري - رحمه الله - في تفسيره (أيسر التفاسير)، وفيه أيضًا وجوب الدفاع عن المجاهدين المتبعين لسنة رسول الله، والذب عنهم، والرد على مخالفهم وشانئهم.

٥٣-من فقه السورة وفقه ما روي من أسباب نزولها: الإشارة إلى السنن الإلهية الثابتة، والقوانين الكونية، كـ(قانون المد والجزر) و(البقاء والفناء)، ففيها دلالة على استحباب تبشير المؤمنين، وبث الأمل والفأل في المسلمين، وقمع اليأس والقنوط من قلوبهم، مع تبشيرهم بأن العلو والريادة والمستقبل الواعد والنصر المؤزَّر لهذا الدين، فهذا وعد الله، ووعد الله حق، فطواغيت الأرض من دول الشرق والغرب ليسوا بناجين من حكم البتر الحتمي، وإنَّ شواهد بترهم وانحسار أمرهم في هذا الزمان لا تخطئه أبصار المؤمنين.

٥٤-من فقه السورة؛ أنها اشتملت على آداب تحفيز المرابطين، وجبر خواطر المجاهدين المغتربين؛ وذلك بتشجيعهم وتكريمهم بالعطاء والصلة، والقضاء على بواعث حزنهم ويأسهم وكآبتهم، ويستحب أن يكون هذا التكريم والعطاء من الجهات العليا ذات المكانة الرفيعة في المجتمع، وفيها ترشيد لرفع الروح المعنوية والروحية، وعلاج الحالات النفسية بتعزيز الاتصال بالرب الرزاق المعطي، ثم تعزيز الاتصال الاجتماعي مع إخوة الإيمان بالإنفاق والتصدق عليهم، وبث البشارة والفأل فيهم بهزيمة الأعداء، وأن المستقبل لهذا الدين، مع الأمر بقهر الأعداء وتبكيتهم، لإماطة أذاهم عن وجه المعمورة.

٥٥-من فقه السورة؛ أنها عنيت بتجلية الحقائق السماوية للقيم الإنسانية والاجتماعية والسياسية الراسخة في العقل الجاهلي، من جهة تصحيحها لمفهوم البقاء والتمدد، وبيان حقيقة شعار: (باقية وتمدد)، فالبقاء والتمدد معلق باتباع السنن النبوية، والاعتصام بهدي الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

٥٦-من فقه السورة؛ أن النعمة لا دوام لها إلا بإدامة شكر الله، وأن النعمة لا هناء بها إلا بهزيمة عدو الله.

٥٧-من فقه السورة؛ أنها مبنية على كوثرية مدلولاتها، فكل كلمة منها تتسع لمعان كثيرة وواسعة، فالكوثر له مدلولات عديدة، وكذا معاني الصلاة، والنحر، والشنآن، والبتر، وقد مر توضيح المعاني المندرجة تحت هذه المصطلحات القرآنية، ورحم الله الشيخ سعيد حوى حين قال في تفسيره (الأساس): (**ثم إن السورة توجد فيها خصائص القرآن كله، فكلماتها أفصح الكلمات، حتى لو بحثت عن كلمة تحل محل كلمة من كلماتها، وتؤدي معناها وجمالها فإنك عاجز، ومعانيها هي الحق الذي لا ينقض، فليس فيها شطحة خيال، وهي في الوقت نفسه مذكرة وواعظة، وهي مربية ومعلمة، ومشرعة ومبشرة، ومفصلة ومبينة، ومحكمة، ثم إن معانيها بقدر كلماتها، بل كلماتها وحدها هي التي تسع معانيها، فهل يستطيع أحد من البشر أن يأتي بسورة من مثل هذه السورة في مكانها وخصائصها؟!**)[١٠٠].

٥٨-من فقه السورة؛ أنها اشتملت على خبرين: (الكوثر) و(الأبتر)، وعلى أمرين: (الصلاة) و(النحر)، وأن الخبرين وإن كانا إنشاءين، فإن المراد بهما معنى الطلب، ولهذا كان البدء بهما بحرف التأكيد الطلبي (إنَّ)؛ للإيحاء بتأكيد مضمونهما، فكما أن جملة (هو الأبتر) قد تضمنت الإيحاء بطلب بتر أعداء الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فإن لفظة (الكوثر) تضمنت أيضًا الإيحاء بطلب تكثير أتباع الرسول - عليه الصلاة والسلام -، كما جاء في الحديث الصحيح: "تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ"[١٠١].

٥٩-من أسرار السورة؛ أن عدد عشرة (١٠) مُلاحظٌ فيها، فعدد كلمات السورة إجمالا عشر، وعدد حروف كل آية منها بغير المكرر عشر، وعدد الحروف التي لم تستعمل في كل السورة إلا مرة واحدة أيضًا عشر، وهذا ما جعل الإمام البقاعي - رحمه الله - يوغل غاية الإيغال في مكنونات الأسرار والإعجازات العددية في أواخر تفسيره لهذه السورة، فكان مما ذكر أن في السورة: (إشارة إلى أن تمام بتر شانئه يكون مع تمام السنة العاشرة من الهجرة، وكذا كان، فلم تمض السنة الحادية عشر من الهجرة وفي جزيرة العرب إلا من يرى أشرف أحواله بذل نفسه وماله في حبه)، ويظهر - والعلم عند الله - أن المقصود بهذا الرقم من هذه السورة؛ التذكير بتاريخ يوم النحر والفداء، الذي هو اليوم العاشر من ذي الحجة، ففيه تراق الدماء، وتذبح الأضاحي، وتزهق ملايين الأرواح تقربا لله - جل جلاله -، تذكيرًا لأمة الإسلام من خلال الأُضحيات الحيوانية، بالتضحيات الفدائية الإبراهيمية.

---

(١٠٠) الأساس في التفسير (٦٧١٢/١١) بتلخيص يسير.

(١٠١) رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٦/ ٦٥).

٦٠-من أسرار السورة؛ انطواؤها على معنى الحركة والسيلان، والتطهير والجريان، فإن الكوثر الأخروي هو النهر الشاخب الجاري في الجنة، وأما الكوثر الدنيوي فهو الذراري الفاطمية والجيوش الجهادية الزاحفة كالطوفان، وأما الصلاة فقد جاء في الحديث الصحيح تشبيهها بالنهر الذي يتطهر منه الإنسان خمس مرات في اليوم والليلة من خطاياه وأدرانه، وأما النحر ففيه قطع الأوداج وإراقة الدماء وسيلانها لتطهير النفس من داء الشح، وأما البتر ففيه قطع الأوداج وإراقة الدماء وسيلانها لتطهير الأرض من داء الكفر والطغيان، والله أعلم بما وراء ذلك من أسرار.

٦١-من أسرار السورة؛ اشتمالها على التحولات السريعة في تلوُّن أساليبها، وتفنن خطابها، فتنتقل من أسلوب خبري إلى أسلوب إنشائي، ومن الجملة الإسمية إلى الجملة الفعلية، ومن خطاب الإضمار إلى خطاب الإظهار، ومن خطاب التكلم إلى خطاب الغَيبة، وهذا التلون والتفنن يأتي على نحو من السرعة التي لا عهد لنا في القرآن بمثلها، ولا بما يقرب منها قطُّ في كلامٍ غيرها، ويبدو أن ذلك مرادٌ ومقصودٌ لإفادة معنى سرعة تحول حال الشانئين وتبدُّلِهِ من بقاء القوة والهيمنة إلى الانقطاع والانكفاء، والانبتار والانحسار.

٦٢-من أسرار السورة؛ اشتمالها على الإيحاء والدلالات الصوتية المؤيدة لمقصود السورة، فتارة تأتي الحروف والكلمات المشددة في مقام الوعد والوعيد والتهديد لإفادة معنى الغزارة في العطاء، والشدة على الكافرين، وتارة تأتي حروف التفخيم لإفادة معنى الفخامة والجلالة والتعظيم، وتارة تأتي الحروف المجهورة لإفادة مقصود الجهر والصدع، وتارة تأتي الحروف الاستعلائية لإفادة معنى القوة والعلو والصعود، وتارة تأتي الحروف المفتوحة لإفادة معنى الفتح والنصر والامتداد الزماني والمكاني، وأما روي السورة وفواصلها، فكلها منتهية بحرف الراء، ومن أهم صفاته اللازمة: التكرار، فيفيد ذلك الإيحاء بتكرار العطايا الكوثرية، وتكرار النحر والبتر للشانئين.

الخاتمة

قُمْ سَمِّ باللهِ وانْحَرْ *** لا تَتَوَانَى لا تَتَأَخَّرْ

فالبَاطِلُ عَرْبَدَ وَتَجَبَّرْ *** ما عُدْنَا نَسْتَحْمِلُ بَطَرَهْ

هاهنا قد انتهى شوط القلم، بما أعانني الله عليه من تفسير سورة واحدةٍ في سطرٍ واحدٍ من كلام ربنا الكريم - جل جلاله -، رجاءَ نفعِ الأمة وشبابها بكتاب ربها - عز وجل -، وتحريك الناس به ركضًا وهرولةً إلى ميادين الشهادة نصرةً لدين ربهم، وإعلاءً لكلمته، وعملًا بكتابه وشريعته، ولقد اختصرت ثم اعتصرت ما تيسر لي من فوائدها خشية الإملال، فلا تظنن أن القلم قد أتى بعشر معشار فوائد هذه السورة الجليلة، فإن في (سورة الكوثر) الكثير مما خفي علمه على أغلب أهل الأرض من مخبئات الإعجاز، وبها من فرائد الفوائد مما لا يسع تدوينه إلا في المجلدات الضخام، ومهما بلغ العلم بالمرء فإن قلمه سيقف أمام هذه السورة موقف العجز عن رصف المباني، وكشف اللثام عن كنوز المعاني، وأخلق بمثل هذا العجز عن البيان أن يكون أَجَلَّ وأعظم بيان، ولقد صدق الأبتر حين قال عنه: (**والله لقد سمعتُ من محمد كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إنَّ له لقرءًا، وإنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لَطلاوةً، وإنَّ أعلاه لَمُثمرٌ معذقٌ، وإن أصله لمشرقٌ مُورقٌ، وإنَّ أسفله لَمُنيرٌ مُغدقٌ، وإنه ليحطِّم ما تحته، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وما هو بقول بشر**)(١٠٢).

وحسبك أن تعلم يا أُخَيَّ أن هذه السورة من أعظم أغذية الإيمان، وأروع النصوص الراقية في القرآن، التي انطوت على الإيحاءات الجمالية في أصواتها، ومفردات ألفاظها، وفي كل جملها المشتملة على البشارة والوعد، والدعوة إلى توحيد الألوهية، والربوبية، والأسماء والصفات، والإخبار بالغيبيات، والحماية للجناب النبوي، والتهديد والوعيد لأعداء هذا الجناب العالي، وهي فوق ذلك من ذوات الاستغناء العجيب في آياتها الثلاث، واستقلال كل جملة من جملها بنفسها، واستغنائها عن كل واحدة من بنات جنسها، مع تناسبها بأخواتها لفظًا ومعنىً، كيف لا، وقد بنيت على أُسُسٍ إعجازيةٍ من حسن النظم، وبراعة التلاؤم، وجميل التناسب، وفصيح التأليف من الترصيع، ورعاية الفواصل، والترديد، وحسن

(١٠٢) روي ذلك بألفاظٍ مختلفة وبأسانيدَ صحيحةٍ في كتب التفاسير وأسباب نزول سورة المدثر، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، عن الأبتر الوليد بن مغيرة.

الرصف، وتحقيق الوصف، والفصل والوصل، فما أكملها من سورة عزيزة، وما أجملها من آياتٍ بينات، فكل حرفٍ فيها عِلَّةٌ عقليةٌ شاهدةٌ على حكمة واضعها، وإعجاز قائلها - سبحانه وتعالى -، فلا غرو أن يروعك بديع نظمها، وحسن بيانها، وأن تصنع فيك يقينًا راسخًا بأن الله هو الناصر لأوليائه، الباتر لأعدائه، وأرجو من الله بعد ذلك كله أن أكون قد وُفِّقْتُ للإتيان على تأويلها بما يرضيه - جل جلاله -، مع بيان معارفها ودررها من غير تمحُّلاتٍ لا يعضدها السياق، ولا مُبَاعَدَاتٍ لا يشهد لها النظم.

واعلم يا أُخَيَّ أن هذا الظلام الحالك لابد أن ينجلي، وأن صبح النصر قريب، والفجر آتٍ لا محالة، وأن البتر حتمٌ نازلٌ بالطواغيت المعتدين، وصدق الله ومن أصدق من الله قيلا:﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾.

إن هذه السورة الجليلة نزلت لتؤكد لنا وللعالم بأسره، حتمية التدخل الإلهي في شؤون المعركة بين الحق والباطل، وأن هذا التدخل يكون باتجاهين: اتجاهٌ تنمويٌ ارتقائيٌ لأهل الحق بتكثيرهم ونصرهم على عدوهم، واتجاهٌ بتريٌ تدميريٌ لأهل الشرك والكفر والباطل بنحرهم وبترهم وقطع دابرهم، ولكنَّ المنبغي على أهل الإسلام في معاركهم؛ أن يعلموا أن شدة العداوات وكثرة العطاءات، تستوجب من العباد وفور الفدائية واستمرار التضحيات، فليُعِدُّوا أنفسهم ويستعدوا للتضحية والفداء، اتباعًا لسنة المرسلين والأنبياء، وفي مقدمتهم رسولنا الحبيب - عليه الصلاة والسلام -، فقد كان متبعًا للهدي الفدائي، والتضحيات المتجذرة في نسبه، الموروثة عائليًا عن أبيه إسماعيل وإبراهيم - عليهما السلام -، والتي ظهرت آثارها حتى في أبيه الأدنى عبد الله وجده عبد المطلب، حين كانا في نفس الموقف الفدائي الإبراهيمي، لولا أن فداه عبد المطلب بنحر مائة من الإبل كما جاء في مرويات السيرة[١٠٣].

(١٠٣) ممن روى قصة عزم عبد المطلب على نحر ابنه عبد الله، والد نبينا – عليه الصلاة والسلام - الإمام الطبري في تأريخه، حيث قال: (وكان عبد المطّلب - فيما حدّثني يونس بن عبد الأعلى - قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا يونس بن يزيد عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب: أنه أخبره أن امرأة نَذَرت أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته، ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينة لتستفتيَ عن نَذْرها، فجاءت عبدَ الله بن عمر، فقال لها عبد الله بن عمر: لا أعلم الله أمَر في النذر إلَّا الوفاء به، فقالت المرأة: أفأنحَرُ بني؟ ! قال ابن عمر: قد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم؛ فلم يزدها عبد الله بن عمر على ذلك، فجاءت عبدَ الله بن عبّاس فاستفتته، فقال: أمر الله بوفاء النذر [والنذر دين]، ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم - وقد كان عبد المطلب بن هاشم نَذرَ إن توافَى له عشرة رهط؛ أن ينحرَ أحدهم، فلما توافَى له عشرة؛ أقْرع بينهم: أيّهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطّلب، وكان أحبَّ الناس إلى عبد المطلب، فقال عبد المطّلب: اللهمّ هو أو مئة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القُرعة على المئة من الإبل - فقال ابن عبّاس للمرأة: فأرى أن تنحري مئة من الإبل مكان ابنك). (تاريخ الطبري: ٢/ ٢٣٩ – ٢٤٠) بإسناد صحيح رجاله ثقات، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٤/ ٥٥/١) بإسناد آخر صحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.

وأخرج الإمام مالك في موطأه (٢/ ٤٧٦) شطرًا متممًا للرواية، يتعلق بفتوى ابن عباس في نذرٍ مشابهٍ بإسنادٍ آخر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - مما يدعم رواية الطبري.

لقد كانت القرابين البشرية في جملة الأشياء التي قدمها الإنسان الجاهلي نذرًا إلى آلهته، فجاء هذا الدين العظيم بتعديل هذه السنن الجاهلية، وحصر تقديم القرابين إلى مستحقها وخالقها وهو الله الواحد الأحد - جل جلاله -، فتأسست بذلك مدرسة التضحية والفداء، على فكرٍ قويم، وعزمٍ فدائيٍ بازغ، وهمةٍ جديدةٍ صارمة، فصنعت هذه الشريعة المحمدية قطيعة معرفية وعملية مع مبتنيات العقل الجاهلي، وجاء هذا القرآن الكريم ليصنعنا صناعة فدائيةً(١٠٤) ثنائيةً توازن بين الروح والجسد، والدنيا والآخرة، فاللهم لك الحمد أن هديتنا للإسلام، وجعلتنا من أتباع رسولك الحبيب - عليه الصلاة والسلام -

وختامًا؛ فإن هذه السورة الجليلة الرهيبة قد نزلت بشأن الطواغيت من أئمة الكفر، الذين مردوا على شنآن الرسول والسخرية به - عليه الصلاة والسلام -، وإنها كما عمَّت طواغيت القرن الأول ككعبٍ، والعاصي، وابن أبي معيط، وأبي جهلٍ، فإنها لا محالة قد عمَّت وستعم طواغيت قرننا الحاضر، من أعداء الرسول - عليه الصلاة والسلام - وشانئيه، والبصير اليوم من يبصر كيف تعمل يد الله حاليا بدهاءٍ وخفاء في بتر هؤلاء، فإن عين البصيرة ترى البتر يجري اليوم على ساقٍ وقدم، وليس بعد البتر سوى التتبير، والتتبير آتٍ لا محالة، فإنه وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، وإني لأرجو من الله الكريم اللطيف بعباده وأمة نبيه - عليه الصلاة والسلام - أن يجعل بتر أمريكا وتتبيرها على يد مبيرها (ترمب)، وأستأنس لذلك باشتمال حروف (البتر) و (التتبير): الباء والتاء والراء في اسم المبير (ترمب)، فاللهم نصرك الذي وعدت، وعذابك الذي لا يرد عن القوم الظالمين.

والحمد لله ربي أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا، أن يسر لي بمنه وكرمه إتمام تأويل سورة الكوثر، من خلال تدبرها تدبرا جهاديًّا، وتأملها تأمُّلًا بيانيًّا، واستكناه ما فيها من جماليات موضوعية، ومقاصدية، ونظمية، ودلالية، وبلاغية، وفقهية، وجهادية، راجيًا من الله سبحانه جزيل الأجر والثواب، وأن أكون قد وُفِّقْتُ في مرادي بتحبيب الأمة بكتاب ربها - جل جلاله -، وليصل النفع لشيخنا المجاهد الشهيد أبي تراب دوست محمد النورستاني - تقبله الله -، وبالله دومًا أستعين وأتأيد، وعليه أتوكل وأعتمد، وبه ألوذ وأعتصم، وإليه المئاب.

---

(١٠٤) لمزيد الفائدة يحسن بالمرء الرجوع إلى الكتب والمراجع والبحوث العلمية التي تكلمت بإسهاب عن مفهوم الفدائية والتضحية في الإسلام وملامحها، ومواطن شرعيتها، ودوافع محركاتها في الشخصية الإسلامية الجهادية، ومن أوسع هذه المؤلفات: (موسوعة الفداء في الإسلام) في ثلاث مجلدات للدكتور الأزهري أحمد الشرباصي، وكتاب (الجهاد والفدائية في الإسلاِم) للشيخ الفقيه الأزهري حسن أيوب - رحمه الله -، وكتاب (الأعمال الفدائية صورها وأحكامها الفقهية) لسامي بن خالد الحمود، وكتاب (التضحية والفداء في الإسلام) لجمعة أمين عبد العزيز، وكتاب (ركن التضحية) للدكتور علي عبد الحليم محمود.

فِهْرِسُ المَوْضُوْعَاتِ الرَّئِيْسِيَّةِ